جامعة آل البيــت

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم التاريخ

المؤسسات الصوفية في مصر في العصر المملوكي الأول (648/784هـ-1250/1382م) ودورها في الحياة العامة

The Sufi institution in Egypt in the first Mamluki period (648-784 A.H/1250-1382 A.D) and its role in general life

إعداد الطالب

محمد سعود مبارك الحسيني

1570303001

إشراف

أ.د. محمد صياح العيسى

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في التاريخ من كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة آل البيت

الفصل الدراسي الصيفي

2017 م

التفويض

أنا الطالب: محمد سعود مبارك الحسيني؛ أفوض جامعة آل البيت بتزويد نسخ من رسالتي للمكتبات أو المؤسسات أو الهيئات أو الأشخاص عند طلبها.

الاسم: محمد سعود مبارك الحسيني

التوقيع: .....

التاريخ: 8/8/ 2017م.

ب

إقرار والتزام

أنا الطالب: محمد سعود مبارك الحسيني الرقم الجامعي: 1570303001

التخصص: ماجستير تاريخ. كلية الآداب والعلوم الإنسانية

أقرُّ بأنني قد التزمتُ بقوانين جامعة آل البيت وأنظمتها وتعليماتها وقراراتها السارية المفعول، والمتعلقة بإعداد رسائل الماجستير والدكتوراه، إذ أن قمت شخصيًّا بإعداد رسالتي الموسومة بـــ:

المؤسسات الصوفية في مصر في العصر المملوكي الأول
(648هـ/1250م-784هـ/1382م) ودورها في الحياة العامة
The Sufi institution in Egypt in the first Mamluki period
(648-784 A.H/1250-1382 A.D) and its role in general life

وذلك بما ينسجم مع الأمانة العلمية المتعارف عليها في كتابة الرسائل والأطاريح العلمية، كما أنني أعلم بأن رسالتي هذه غير منقولة أو مستله من رسائل أو كتب أو أبحاث أو أية منشورات علمية تم نشرها أو تخزينها في أي وسيلة إعلامية، وتأسيساً على ما تقدم، فإنني أتحمل المسؤولية بأنواعها كافة فيما لو تبين غير ذلك، بما فيه حق مجلس العمداء في جامعة آل البيت بإلغاء قرار منحي الدرجة العلمية التي حصلت عليها، وسحب شهادة التخرج مني بعد صدورها، دون أن يكون لي أي حق في التظلم أو الاعتراض أو الطعن بأي صورة كانت في القرار الصادر عن مجلس العمداء بهذا الصدد.

توقيـــع الطالب: .....

التـــاريخ: 8 / 8/ 2017 م.

ج

قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الرسالة وعنوانها:

المؤسسات الصوفية في مصر في العصر المملوكي الأول (648هـ/1250م-784هـ/1382م) ودورها في الحياة العامة

The Sufi institution in Egypt in the first Mamluki period (648-784 A.H/1250-1382 A.D) and its role in general life

وأجيزت بتاريخ : / /2017م.

إعداد

محمد سعود مبارك الحسيني

إشراف

أ.د محمد صياح العيسى

أعضاء لجنة المناقشة:		التوقيع
أ.د محمد صياح العيسى	مشرفاً ورئيساً	.....
الدكتور انور الخالدي	عضواً	.....
الدكتور علاء سعاد	عضواً	.....
أ. الدكتور محمد العمايرة	عضواً خارجياً	.....

د

الإهداء

إلى الوالدين والأصدقاء

الباحث

شكر وتقدير

أتقدم بجزيل الشكر ووافر الامتنان لحضرة الأستاذ الدكتور محمد صياح العيسى الفاضل والذي تكرّمَ بالإشراف على رسالتي هذه، وكان لتوجيهاته وملاحظاته السديدة وإرشاداته القيّمة الأثرّ الأكبر في إتمام هذا العمل الأكاديمي وإخراجه إلى حيّز الوجود، فله مني كل الشكر والتقدير والعرفان، متمنياً من المولى عزّ وجل أن يزيده علماً ورفعة، وأن يجزاه عني خير الجزاء في الدنيا والآخرة.

كما أتقدم بجزيل الشكر والتقدير إلى أساتذتي الكرام أعضاء لجنة المناقشة لتكرمهم بقبول مناقشة هذه الرسالة والذي زادني وإياها بهم شرفٌ ورفعة لما بذلوه من جهد ووقت في قراءتها ووضع ملاحظاتهم السديدة وإضاءاتهم النيّرة التي أثرّت هذه الدراسة، كل من حضرة الدكتور الفاضل أنور الخالدي وحضرة الدكتور الفاضل علاء سعادة والمحكم الخارجي حضرة الدكتور محمد العمايرة .

كما أتقدم بشكري وعظيم امتناني إلى الذين نهلت من علمهم وتتلمذت على أيديهم والذين غمروني بما لديهم من علم ومعرفة؛ أساتذتي الأكارم في كلية الآداب والعلوم الإنسانية في "جامعة آل البيت".

الباحث

فهرس المحتويات

الموضوع	رقـــــم الصفحة
التفويض	ب
إقرار والتزام	ج
قرار لجنة المناقشة	د
الإهداء	هـ
شكر وتقدير	و
فهرس المحتويات	ز
ملخص	ط
الاختصارات المستخدمة	ي
مقدمة:	1
أهمية الدراسة ومنهج البحث:	3
دراسة تحليلية نقدية لأهم مصادر البحث	5
التمهيد: الأحوال السياسية أواخر العهد الأيوبي التي مهّدت لظهور المماليك	9
الفصل الأول : التصوف المصطلح والنشأة	**24**
المبحث الأول: المصطلح	24
المبحث الثاني: النشأة والتطور التاريخي	28
الفصل الثاني : شيوع التصوف في مصر في العصر المملوكي	53
المبحث الأول: تغلغل التصوف في المجتمع المصري في العصر المملوكي	53

المبحث الثاني: الصراع بين الفقهاء والمتصوفة في مصر في العصر المملوكي	66
الفصل الثالث : المؤسسات الصوفية	78
المبحث الأول: الخوانق	78
المبحث الثاني: الربط	87
المبحث الثالث: الطرق الصوفية	96
الفصل الرابع: دور المؤسسات الصوفية في الحياة العامة	102
المبحث الأول: المنشآت التابعة للمؤسسات الصوفية ودورها في الحياة العامة	102
المبحث الثاني: أوقاف المؤسسات الصوفية وما أدته من خدمات	105
المبحث الثالث: عمارة المؤسسات الصوفية	119
الخاتمة	123
قائمة المصادر	124
قائمة المراجع	133
Abstract	135

ملخص

أتت هذه الدراسة لتكون مرجعاً جديداً عن المؤسسات الصوفية في مصر في العصر المملوكي الأول (648هـ/1250م-784ه/1382م) ودورها في الحياة العامة، فمن المعروف أن هذا العصر قد ازدهر فيه التصوف بشكل كبير، حتى أنه لا يمكن لأي باحث في تاريخ المجتمع في هذه الفترة أن يتغاضى عن التصوف، إذ أصبح المتصوفة ومؤسساتها أحد أجزاء المجتمع آنذاك.

إن هذه الدراسة هي لتغطية فترة العصر المملوكي الأول (648ه/1250م-784ه/1382م) وهي فترة حكم المماليك الأتراك، وتناولت بالتحليل المؤسسات الصوفية التي عرفت في ذلك الوقت بمسمياتها المختلفة، وهي الربط والزوايا والخوانق، ومن جانب آخر تحولت هذه المؤسسات إلى ملاجئ لمن ضاقت بهم السبل، فأخذ ينضم إليهم المتكسّبة الذين أخرجوا التصوف من حالة الزهد والتقوى والانعزال عن الخلق، ومعاقبة النفس، إلى حالة جديدة من التواكل والتكسّب بالكرامات ومعرفة الغيبيات، ومن المؤكد أن هذا ما أعطى صورة سلبية عنهم لدى المجتمع، ظلت ماثلة في الأذهان حتى يومنا هذا.

الكلمات المفتاحية: التصوف ، الخوانق ، الربط، الزوايا .

الاختصارات المستخدمة

أشير إلى المصادر والمراجع في الهوامش على النحو الآتي:

ترمز الحروف الآتية إلى ما يلي:

ت	الوفاة
هـ	الهجري
م	الميلادي
ق	القرن
ط	الطبعة
ج	الجزء
ص	الصفحة
د. ط	دون طبعة
د. ت	دون تاريخ نشر
د. ن	دون دار نشر
ع	العدد بالنسبة للدوريات
P.	رقم الصفحة بالانجليزي
vol.	رقم الجزء بالانجليزي

مقدمة:

إن البحث عن جذور كلمة التصوف هو أمر شاق على الباحثين، فإلى وقتنا الحاضر لا يوجد اتفاق بين المختصين على معنى هذه الكلمة ومن أين اشتقت، فبعضهم أرجعها للبس الصوف، وقد ورد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد لبس الصوف، فجعله الصحابة والتابعين قدوة لهم، وأرجعها البعض الآخر لأهل الصفة، وكانوا قد وردوا على المدينة ولم يكن عندهم مساكن فجاؤوا على صفة المسجد، وكان هؤلاء يرتدون ملابس من صوف وكان زهدهم وورعهم شديد، إلا أن الصوفية أنفسهم لا يقبلون بهذه التسمية بمعنى ارجاعها إلى الصوف، فهم يكادون يجمعون على أن الكلمة أصلها من الصفاء، فقيل صافي وصوفي بمعنى تطهر، ومن جملة الآراء التي وردت في هذا السياق أن الكلمة تعود ل (صوفانة) وهي نبتة رعناء قصيرة لا تحتاج إلى عناية، وذلك إلى أن الصوفية كانوا يكتفون بالنزر اليسير من الطعام والشراب، ولذا فقد شبهوا بهذه النبتة المسماة صوفانة، وقيل أن اللفظ مشتق من صوفة القفا وهي خصلة شعر في مؤخرة الرأس أو العنق، ولهذا كان يطلق عليهم صوفية أي هؤلاء الذين يطلقون شعورهم ولا يعتنون بها لأن لديهم ما يشغلهم عن ذلك من الأمور الروحانية، إلى غير ذلك من الآراء التي لسنا بصدد التطرق إليها.

لقد تطورت التصوف من أفراد زاهدين إلى مؤسسة ذات أهمية في المجتمع، فأصبح لدينا خوانق وربط وزوايا وهي أماكن اختص بها الصوفية وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من المجتمع، فمنذ العصر العباسي الثاني مروراً بالفترة الأيوبية والمملوكية أصبحنا لا نستطيع دراسة المجتمع دون أن نخصص جانباً لهذه المؤسسات، وقد ترافق ذلك مع تعدد الطرق وتشعبها وبروز أعلام من المتصوفة أصبح لديهم مكانة مميزة في المجتمع.

أما بالنسبة للعصر المملوكي الأول والذي اخترته زمناً محدداً لهذه الدراسة، فهو ذلك العصر الذي يبدأ باعتلاء شجرة الدر للحكم، فبعد مقتل توران شاه أضحى العرش شاغراً فصار المماليك الذين قادوا مؤامرة التخلص من توران شاه في حيرة من أمرهم، إذ ليس من السهل أن يتقبل الناس في مصر والشام جلوس مملوك على عرش مصر، لذا قرروا أن يولوا شجر الدر، فنصبوها سلطانة على مصر فباشرت التواقيع ونقش اسمها على السكة، وقد اعتبر بعض المؤرخين شجر الدر أولى سلاطين دولة المماليك البحرية وتوران شاه آخر ملوك الأيوبيين، وبعد تولي شجر الدر السلطة انقسمت مصر والشام إلى قوتين متنازعتين، وقد ظهر لهذا الأمر نتائج مهمة، أبرزها انفصال الوحدة التي أقامها الصالح أيوب بين مصر وبلاد الشام، إلى أن أعادها قطز بعد انتصاره على المغول في معركة عين جالوت، كما ظهرت المزيد من الانقسامات بين أمراء بلاد الشام من جهة، وبينهم وبين السلطة الجديدة في مصر من جهة أخرى، وأنكر الخليفة العباسي ومعه بعض العلماء لهذا الأمر، وكانت القوتان الأولى بأيدي المماليك في مصر، والثانية بأيدي الأيوبيين في الشام، وشعر المسلمون بحرج شديد في أن يلي أمرهم امرأة، ولقيت حركة معارضة شديدة من رجال الدين، عند ذلك رأى المماليك البحرية الصالحية المؤيدون لشجر الدر أنه لا بد لهم من حل لهذا الموقف، فسارعوا إلى تزويجها من الأتابك عز الدين أيبك التركماني أتابك العسكر، وتنازلت له شجر الدر عن السلطة بعد ثمانين يوماً من حكمها، ولكن سرعان ما دب الخلاف بين أيبك وزوجته شجر الدر بسبب تسلطها وشدة غيرتها عليه، وتسارعت الأحداث بعد ذلك فأدت إلى مقتل شجر الدر وعز الدين أيبك، ثم يأتي بعد ذلك أتابك الجيش سيف الدين قطز، والذي ستكون مرحلة حكمه مفصلاً هاماً في التاريخ.

أهمية الدراسة ومنهج البحث:

تأتي هذه الدراسة لتدرس المؤسسات الصوفية في مصر في العصر المملـوكي الأول دراسـةً تحليلية وافية، لأن هذه المؤسسات – خوانق، ربط، زوايا – أصبحت جزءاً فعالاً في المجتمع توقف عليها الأوقاف بشكل سخي في أغلب الأحيان، كما أنها تحظـى بـاحترام ومهابـة الجميـع حتـى السلاطين والخواتين، ولا نبالغ أن هذا الاحترام وصل لحد القداسة عند بعض الناس، وقـد اختـرت مصر لأنها المنبع الرئيس للمتصوفة ولأنها أصبحت المقر الرئيس للسلطنة المملوكية وقـد كثـرت فيها الطرق بشكل كبير وتحديداً في العصرين الأيوبي والمملوكي، ولم أتطرق إلى العصر المملوكي بشقيه الأول والثاني (البحرية والبرجية) لأني أعتقد أن المادة التاريخية المتعلقـة بالصـوفية فـي العصر الأول ستكون وافية.

أما منهج البحث في هذه الأطروحة فانه سيكون منهجاً تكاملياً يأخذ من محاسن المناهج جميعها وخصوصاً المنهج التاريخي لتأصيل قضايا البحث، والمنهج الوصفي في عـرض آراء المـؤرخين والكتاب، والمنهج التحليلي في دراسة أسباب الظواهر التاريخية واستخلاص النتائج.

أما بالنسبة للخطة التي سرت عليها في الدراسة فقد تمثلت بتقسيم الدراسة إلى أربعة فصـول، الفصل الأول عن التصوف المصطلح والنشأة، كان المبحث الأول للمصطلح وتطـوره التـاريخي، والمبحث الثاني لنشأة الصوفية وازدهارها عبر القرون الهجرية الثلاث الأولى، وكان الفصل الثاني يُعنى بشيوع التصوف في مصر في العصر المملوكي الأول، حيث أن مصر كانت الأرض الخصبة للتصوف، وبرز فيه أعلام أصبحوا رموزاً صوفية عبر التاريخ، وقسمته إلى مبحثين المبحث الأول عن تغلغل التصوف في المجتمع المصري في العصر المملوكي، والمبحث الثاني كان عن الصـراع بين الفقهاء والمتصوفة في مصر في العصر المملوكي، وهذا الصراع بطبيعة الحال لـه مدلولاتـه حيث نتج عن ازدهار الصوفية وشطحات أوليائها، الأمر الذي اعتبره الفقهاء خروجاً عـن تعـاليم

الدين الحنيف، وأتى الفصل الثالث تحت مسمى المؤسسات الصوفية الخوانق والربط والزوايا، وفيه ميّز الباحث الفروق بين كل مسمى من هذه المسميات التي بالعادة ما يخلط بينها الباحثون، وقد أتى الباحث أيضاً على ذكر كل الخوانق والربط والزوايا التي وجدت في مصر في تلك الفترة، وذكر واقفها وما أوقف عليه وسنة الوقف إن وُجد ذلك، وختامها كان الفصل الرابع تحت عنوان دور المؤسسات الصوفية في الحياة العامة، وقد جاء في مبحثين الأول عن المنشآت التابعة للمؤسسات الصوفية ودورها في الحياة العامة، والثاني عن أوقاف المؤسسات الصوفية وما أدته من خدمات، مثل التدريس وتقديم الطعام والمأوى.

أما الخاتمة فقد أوجزت فيها النتائج التي توصلت إليها الدراسة، كما احتوت الدراسة على قائمة بالمصادر المطبوعة، والمراجع والبحوث العربية والأجنبية التي أسهمت في مجموعها في بناء هيكل البحث وما توصل إليه من نتائج.

دراسة تحليلية نقدية لأهم مصادر البحث

اعتمدت هذه الدراسة على مجموعة مختلفة من المصادر التي تشكل مادتها ركناً أساسياً في هذه الدراسة، وسيكون التركيز هنا على قيمة كل مصدر من المصادر بمقدار ما يعطي صورة واضحة عن التصوف في مصر في العصر المملوكي، ودور المؤسسات الصوفية في المجتمع.

1. معجم البلدان لياقوت الحموي (ت626هـ/1229م) ويعتبر كتاب معجم البلدان كتاب جغرافي تعرض فيه المؤلف لبيان الأقاليم الجغرافية وما تحتوي عليه من مدن، كما أنه ذكر فيه كثيراً من الجوانب الأدبية والتاريخية وتراجم العلماء والصوفية، وقد أفادت الدراسة منه في التعريف بالمدن وتحديد مواقعها.
2. الوافي بالوفيات لصلاح الدين بن أيبك الصفدي (ت764هـ/1363م) وهو من كتب التراجم ذات الأهمية الكبيرة والتي وفرت عدداً من التراجم لعدد كبير من الأعلام الواردين في الدارسة.
3. البداية والنهاية لعماد الدين إسماعيل بن كثير (ت774هـ/1372م) وهو فقيه إلى جانب كونه مؤرخاً، فجاءت أخباره دقيقة وموثوقة وقد كان معاصراً للأحداث وخاصة في الأجزاء الأخيرة من كتابه، ولم تقتصر الإفادة منه على فصل واحد، بل كان مصدراً مهماً للمماليك وللصوفية وأحوالهم.
4. المختصر في أخبار البشر للملك المؤيد بن الأفضل نور الدين المشهور بأبي الفداء (ت732هـ/1331م) وهو يتناول تاريخ فترة ما قبل الإسلام حتى سنة (729هـ/1328م) وقد رتبه ترتيباً حولياً، وكان مصدراً مهماً للحوادث السياسة والاقتصادية خاصة في فترة الدولة المملوكية الأولى.

5. صبح الأعشى في صناعة الإنشاء لشهاب الدين أبي العباس أحمد بن علي القلقشندي (ت821هـ/1418م)، ويعد هذا الكتاب موسوعة ضخمة لمختلف المواضيع التاريخية والجغرافية والإدارية، وقد توفر في هذا الكتاب الكثير من الوثائق الرسمية والمراسلات والمناشير والتواقيع، وجاء إيراده لهذه الوثائق بحكم عمله بديوان الإنشاء، ومن هنا كانت هذه الموسوعة مفيدة في معظم فصول الرسالة سواء من حيث الوثائق والتقاليد أو الصيغ التي يتم بها تعيين العلماء والشيوخ والمدرسين، إلى جانب تعريفه للكثير من مصطلحات العصر المملوكي.

6. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار لأحمد بن علي بن عبد القادر المعروف بالمقريزي (ت845 هـ /1441م)، وهو كتاب يعنى بالتاريخ والجغرافيا التاريخية، وهو أيضاً أفضل مؤلفات المقريزي وأكثرها شهرة، ويعرف ب (خطط المقريزي)، أرّخ فيه للمدن المصرية ومعالمها ومنشآتها، وعجائبها وغرائبها، وآثارها وأوابدها، ومدارسها ومساجدها، وأديرتها وكنائسها، وربطها وخوانقها، وزواياها ومشاهدها، وبيمارستاناتها ومراصدها، وخاناتها وأسواقها، وأسبلتها وحماماتها، وقناطرها وجسورها، وأسوارها وقلاعها، وما في قصورها من خزائن الجوهر وأواني البلّور، والتماثيل والطيور، والنوافير والقاعات وبلغ فيه ذروة الافتتان والاستيعاب والروعة. وقدم له بمقدمة جليلة، تعد من نفائس المقدمات.

7. عوارف المعارف لأبي النجيب عبد القاهر بن عبد الله السهروردي، وهو فقيه شافعي واعظ، من أئمة المتصوفين، ولد بسهرورد، وسكن بغداد، فبنيت له فيها رباطات للصوفية من أصحابه، وولي المدرسة النظامية، وتوفي ببغداد سنة

(563 هـ /1168م)، ويعد كتابه هذا مرجعاً مهماً عن التصوف، جمع فيه مؤلفه كل ما يخص التصوف والزهد.

8. التعرف لمذهب أهل التصوف لأبي بكر محمد بن أبي إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب الكلاباذي، من حفاظ الحديث من أهل بخارى، توفي سنة (380 هـ /990م)، كان هذا الكتاب مع قله صفحاته موسوعة علمية صوفية كبرى يغني عن غيره من الموسوعات الكبرى ولا يغني غيره عنه حتى قال علماء التصوف القدامى لولا التعرف لما عرف التصوف، والكلاباذي ليس مؤرخاً في هذا الكتاب فحسب بل هو عالم عارف ذائق يدلي برأيه وحجته ثم هو معاصر وصديق للثقات الأئمة الذين اضاءوا آفاق التصوف.

9. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لأبي المحاسن يوسف بن تغري بردي، وهو مؤرخ بحاثة من أهل القاهرة، مولداً ووفاةً، كان أبوه من مماليك الظاهر برقوق ومن أمراء جيشه المقدمين، ومات بدمشق سنة (815هـ/)، وكتاب النجوم الزاهرة كتاب كبير جمّ الفائدة في تاريخ مصر مرتب على السنين وهو من أهم كتب ابن تغري، ذكر فيه من ولي مصر من الملوك والسلاطين والنوّاب ذكراً وافياً مع ذكر ملوك الأطراف بطريق إجمالي، آتياً في كل سنيه على ما وقع من الحوادث المهمة، ومن توفي من رجالات الأمة الإسلامية، وقد انفرد بعد أبي بكر بن عبد الله بن أيبك مؤرّخ مصر بإشارته في آخر كل سنة إلى زيادة النيل ونقصانه.

10. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان، تولى نيابة قضائها، وسافر إلى دمشق، فولاه الملك الظاهر قضاء الشام، وعزل بعد عشر سنين، فعاد إلى مصر، فأقام سبع سنين، ورد إلى قضاء الشام، ثم

عــزل عنــه بعــد مــدة، وولــي التــدريس فــي كثيــر مــن مــدارس دمشــق تــوفي ســنة (681 هــ /1281م)، تميّز الكتاب على سائر كتب التراجم بعناية مؤلفه بإثبات ســنة الــولادة والوفاة متى تيسّر له ذلك، وبلغ من عنايته بذلك أنه كان يسقط الترجمة كلها إذا لم يوفــق فــي الوقوف على سنة الوفاة ويعتذر عن ذلك بقوله عن بعض التراجم: "ولم أظفر بوفاته حتى أفرد له ترجمة"، وهذه الحفاوة بذكر التواريخ، بالإضافة إلى غزارة المادة وسداد المــنهج وســهولة التناول، جعلت الكتاب في صدارة كتب التراجم العامة.

التمهيد

الأحوال السياسية أواخر العهد الأيوبي التي مهّدت لظهور المماليك

إن وفاة صلاح الدين الأيوبي سنة (589هـ/1193م) صنعت فراغاً سياسياً كبيراً في المنطقة، فقادت وفاته إلى تفسخ دولته في الحال، وكان لتقسيمه دولته الشاسعة بين أبنائه وإخوته وبني عمومته وأبنائهم ظهور المنازعات والمشاحنات والحروب، فهذا ابنه الأكبر الملك الأفضل يحكم دمشق وتوابعها، والعزيز عثمان يحكم مصر، والظاهر غياث الدين يحكم حلب، وأخاه الملك العادل سيف الدين في الجزيرة الفراتية والكرك والشوبك[1]، وهذه الإقطاعات التي نالها العادل ما كانت تتناسب مطلقاً مع مواهبه، ومع ذلك فإنه ظل صاحب دور فاعل في الصراع الذي قام بين ورثة صلاح الدين، ولكنه خلال ست سنوات استطاع أن يوسع رقعة سلطانه ويوطد دعائم نفوذه في مصر والشام ويعيد الاستقرار من جديد لبلاد الشام[2]، ولكن انحلال الدولة الأيوبية اتضح منذ توقيع الأيوبيين معاهدة يافا سنة (627هـ/1229م) بين السلطان الكامل محمد (ت635هـ/1238م) [3] وفردريك الثاني[4]، ففي سنة (625هـ/1227م) جاء فردريك الثاني إلى بلاد الشام ونزل بمدينة

([1]) أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل (ت665هـ/1267م) عيون الروضتين في أخبار الدولتين، ط1،ج4، تحقيق إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة بيروت 1997 ص409-412 .

([2]) أبو شامة، عيون الروضتين في أخبار الدولتين، ج4، ص452-455. قاسم، عبده قاسم، الأيوبيون والمماليك " التاريخ السياسي والعسكري " ط1، عين للدراسات والبحوث، القاهرة 1995ص83-84.

([3]) الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر محمد بن أيوب، ولد بمصر وأعطاه أبوه الديار المصرية وتولى الحكم سنة (615هـ/1215م) وحسنت سياسته فيها واتجه الى توسيع نطاق ملكه فامتلك الديار الشامية، ودعي له في مكة واليمن ومصر والشام والجزيرة، توفي بدمشق سنة (635 هـ /1238م) ودفن بقلعتها. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت764 هـ /1362م)، الوافي بالوفيات، ج1، تحقيق أحمد الارناؤوط، دار إحياء التراث، بيروت، 2000، ص158-161

([4]) الإمبراطور فردريك الثاني صاحب صقلية، زار البلاد المقدسة وأخذ القدس صلحاً، وكان عالماً متبحراً في علم الهندسة والرياضيات، وفي بلاطه عاش كثير من العلماء وترجموا كثيراً من الكتب العربية (ت648 هـ /1250م). عباس، إحسان، العرب في صقلية، ط1، دار الثقافة، بيروت 1975 ص319-320.

عكا قادماً من جزيرة قبرص[1] بعد أن أكد تبعيتها للإمبراطورية الرومانية الغربية، وفي نيته الاستيلاء على بيت المقدس من الكامل محمد مقابل ما تقديم المساعدة له ضد أخيه المعظم عيسى[2].

ولما نزل في عكا بعث إليه الملك الكامل رسولاً لإجراء مباحثات تسليم بيت المقدس، وقد رحب الإمبراطور بإقامة علاقات ودية مع الملك الكامل واعتقد أن السلم سوف يدوم بين الطرفين، بيد أن الرسول أكد له أنه إذا خالف الاتفاق سيلقى مصيراً يقضي عليه وعلى ملكه[3]، وفي ذات الوقت كان الإمبراطور قد استغل وفاة الملك المعظم سنة (624هـ/1226م) فقام بالاستيلاء على صيدا[4] سنة (625هـ/1227م) والتي كانت مناصفةً بين المسلمين والصليبيين[5].

وقد برزت الخلافات العائلية بأفضل أشكالها في محاولة الناصر داوود بن الملك المعظم عيسى العودة إلى ملكه السابق في دمشق سنة (626هـ/1229م) إلا أنه فشل في تحقيق ذلك أمام تحالف عميه الأشرف والكامل ضده، ومن ثم فإنه قنع بالكرك والسلط

([1]) قبرص وهي جزيرة في بحر الروم مقدار ستة عشر يوماً، طولها إحدى وستون درجة وخمس عشرة دقيقة، وعرضها خمس وثلاثون درجة وثلاث عشرة دقيقة. الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت626هـ/1229م) معجم البلدان، ج4، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1979، ص305.

([2]) الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت748هـ/1347م) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعيان، ط2، ج45، تحقيق عمر تدمري، دار الكتاب العربي ، بيروت 1993 ص26.

([3]) الحموي، محمد علي بن نظيف (ت631هـ/1234م) التاريخ المنصوري، تحقيق أبو العيد ديدو مجمع اللغة العربية، دمشق 1982 ص177.

([4]) صيدا بأرض الشام بينها وبين بيروت يومان، وهي على ساحل البحر وعليه سور حجارة، وهي مدينة كبيرة عامرة الأسواق. الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت900هـ/1495م) الروض المعطار في خبر الأقطار، ط2، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت 1980 ص373 .

([5]) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص430.

والبلقاء، حيث شكل بها إمارة الكرك الأيوبية، في حين أعطى الكامل مدينة دمشق لأخيه الأشرف مقابل تنازله عن جهات الجزيرة[1].

إلا أن العلاقة سرعان ما تدهورت بين الأشرف والكامل سنة (633هـ/1231م) ، حيث توالت من الكامل أفعال ضاق بها الأشرف ذرعاً، منها أنه أخذ منه بلاده الشرقية حين أعطاه دمشق بعد انتزاعها من الناصر داود، كما استأثر بمناطق هامة كانت تابعة أصلاً لدمشق، وعندما استولى سلطان سلاجقة الروم[2] السلطان علاء الدين كيقباذ [3] على بلاد خلاط[4] لم يقدم له الكامل العون في ذلك، ولم يعد بيد الأشرف سوى دمشق، أما الكامل فقد كان يغضبه تجنيد الأشرف للخوارزمية بعد مقتل ملكهم جلال الدين منكبرتي[5].

([1]) اليافعي، عبد الله بن أسعد (ت768هـ/1367م) مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ط1،ج4، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت 1997 ص47.

([2]) سلطنة سلاجقة الروم هي إحدى الدول الإسلامية التي أسسها السلاجقة الأتراك في آسيا الصغرى سنة (470هـ/1077م) بعد أن طردوا البيزنطيين منها، وقد لعبوا دوراً بارزاً في صبغ المنطقة بالصبغة الإسلامية فمهدوا بذلك لقيام دولة الخلافة العثمانية قبل أن يفقدوا استقلالهم أمام هجمات المغول، وقد زالت دولتهم سنة (806هـ/1404م) طقوش، محمد سهيل، تاريخ المماليك في مصر والشام، ط1، دار النفائس، بيروت 1997، ص287.

([3]) علاء الدين كيقباذ بن السلطان كيخسرو بن السلطان قلج أرسلان، صاحب مملكة الروم، استولى على عدة مدائن، وتزوج بابنة العادل، فولد له منها، وكان قبله قد تملك أخوه كيكاوس، فاعتقل أخاه هذا مدة، فلما نزل به الموت أحضر كيقباذ وفك قيده وعهد إليه بالسلطنة، ووصاه بأطفاله، فطالت أيامه، وكان فيه عدل وإنصاف في الجملة (ت634هـ/1232م) الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت748هـ/1347م) سير أعلام النبلاء، ط1، ج16، تحقيق شعيب الارناؤوط ، مؤسسة الرسالة، بيروت 1984 ص295.

([4]) خلاط مدينة كبيرة مشهورة وهي قصبة بلاد أرمينيا أهلها مسلمون ونصارى وكلام أهلها العجمية والأرمنية والتركية. القزويني، زكريا بن محمد محمود (ت682هـ/1283م) آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، د. ت، ص524.

([5]) الدواداري، أبو بكر عبد الله بن أيبك (ت736هـ/1432م) الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب،ج7، تحقيق سعيد عاشور، القاهرة 1972 ص317.

وهكذا بدى واضحاً انشقاق الأشرف على أخيه الكامل وتحالفه مع أقربائه في حمص وحماة وحلب على حين بقيت إمارة الكرك الأيوبية تمثل مركزاً لتوازن القوى بين الفريقين المتنازعين[1].

ولكن وفاة الأشرف سنة (635هـ/1237م) أزالت شبح حرب مؤكدة أوشكت أن تقع بينه وبين الملك الكامل، وبعد وفاته انتقل حكم دمشق وبعلبك[2] وجميع ما يتصل بدمشق من البلاد إلى أخيه الصالح إسماعيل بعهد منه [3].

وظل الصالح إسماعيل كسلفه الأشرف في تحالفه مع أقربائه ضد الملك الكامل الذي عزم على المسير إلى بلاد الشام للاستيلاء عليها، وهذا الأمر دفع الملك الكامل إلى الخروج إلى دمشق بعد أن استمال إليه ابن أخيه الناصر داود صاحب الكرك، وقد انتهج الصالح إسماعيل سياسة الأرض المحروقة خارج دمشق حتى لا يستفيد منها الكامل وجيوشه، مما كان له أسوأ الأثر على سكان دمشق وما حولها حيث حل الفقر بالناس، ودمرت البساتين والدور والأسواق[4]، وظل القتال سجالاً بين الفريقين وحين اشتدت الضائقة بدمشق وأوشكت على السقوط لم يكن من الصالح إسماعيل إلا أن أذعن لوساطة محي الدين بن الجوزي [5] مبعوث الخليفة العباسي المستنصر بالله (ت640هـ/1242م)

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية،ج13، ص170.

(2) بعلبك مدينة قديمة من أطيب مدن الشام بينها وبين دمشق مسير ثلاثة أيام. الحموي، معجم البلدان، ج1، ص453-455.

(3) المقريزي، تقي الدين أحمد (ت845هـ/1441م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، ط3، ج1، ق1، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة 2006، ص256.

(4) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص173 .

(5) محي الدين يوسف بن عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، كان إماماً كبيراً وصدراً معظماً، درس وأفتى وصنف، وصنف، وبعث به إلى الملوك، ورأى من العز والإكرام والاحترام من الملوك شيئاً كثيراً، وكان محبباً إلى الناس، ولي الأستاذ دارية بضع عشرة سنة قتله المغول سنة (656هـ/1258م) ابن العماد، عبد الحي بن أحمد

الذي كان قد حضر إلى دمشق، وسلم الصالح إسماعيل دمشق إلى أخيه الكامل في أوائل (635هـ/1238م) وعوضه عنها بعلبك والبقاع[1].

ولكن السلطان الكامل لم يتمكن من إتمام وحدة مصر والشام فبعد استيلائه على دمشق اشتد به المرض ولم يلبث أن توفي سنة (635هـ/1238م) فكانت وفاته نذيراً بسلسلة جديدة من الصراعات ونذيراً أيضاً بتفكك الدولة الأيوبية وانهيارها[2].

وكان رأي الأمراء وقادة العسكر بدمشق بعد التشاور على أن يكون السلطان الجديد "العادل بن الكامل" والذي نصّبه والده نائباً بمصر، واتفقوا على أن يكون الجواد يونس بن مودود بن العادل نائباً عن ابن عمه بدمشق وصرفوا النظر عن الناصر داود الذي وعده الكامل قبل موته بإعادة دمشق إليه وذلك خوفاً من استبداده بالملك [3].

وحين أراد الناصر داود صاحب الكرك استعادة أملاك أبيه المعظم عيسى اصطدم مع الجواد يونس بن مودود بن العادل ووقعت بينهما معركة في مكان يقال له ظهر حمار[4] بين نابلس وبيسان فدارت الدائرة فيها على الناصر ومضى منهزماً إلى الكرك واستولى الجواد على خزائنه[5] ثم نزل في نابلس، وولى فيها وفي أعمال القدس والأغوار من قبله[6].

أما في شمال بلاد الشام فلم تكن الأمور أحسن حالاً فقد وقعت معركة بين المظفر تقي الدين الثاني صاحب حماة وبين المجاهد أسد الدين شيركوه الثاني صاحب حمص،

الحنبلي (ت1089هـ/1679م) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط1، ج7، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، 1986 ص494-496.

([1]) الدواداري، الدر المطلوب، ج7، ص324-325

([2]) عاشور، سعيد عبد الفتاح، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة 1988 ص120.

([3]) المقريزي، السلوك ج1، ق2، ص 261.

([4]) ظهر حمار قرية بين نابلس وبيسان. الحموي، معجم البلدان، ج4، ص63.

([5]) ابن واصل، مفرج الكروب ج5، ص 192 – 193.

([6]) ابن واصل، مفرج الكروب ،ج5، ص 193.

ويساند الأخير ضيفة خاتون[1] صاحبة حلب، وانتهت هذه المعركة بأن فقد المظفر سلمية[2] لحساب المجاهد صاحب حمص وفقد معرة النعمان[3] لحساب حلب، ولم يبق بيده خارج حماه سوى بارين[4] بارين[4] التي خشي أن يصيبها المصير نفسه فأمر بهدمها[5].

ويبدو أن الحلبيين أرادوا تأديب المظفر بأخذ معرة النعمان منه ومضايقته بسبب انحيازه إلى الكامل محمد واتفاقه معه على مهاجمة حلب[6]، في هذه الأثناء طمع الجواد في الاستقلال بدمشق فعزله العادل الثاني عنها وهدده بالزحف نحو المدينة، فما كان من الجواد إلا أن التجأ إلى الصالح نجم الدين أيوب الذي شعر بأن توزيع أملاك أبيه الملك الكامل لم يكن عادلاً، وعرض عليه تسليمه مدينة دمشق مقابل تعويضه بسنجار[7]

([1]) ضيفة خاتون بنت الملك العادل أبي بكر بن أيوب صاحب حلب، أميرة عاقله حازمه، تصرفت في حلب بعد وفاة ابنها (الملك العزيز) وولاية حفيدها(الناصر) وهو طفل تصرف السلاطين نحو ست سنين مولدها ووفاتها بقلعة حلب، توفيت سنة (640هـ/1242م). سبط بن العجمي، أحمد بن إبراهيم (ت884هـ/1480م) كنوز الذهب في تاريخ حلب، ط1، ج1، تحقيق شوقي وفالح البكور، دار القلم حلب،1997 ص327.

([2]) سلمية مدينة من أعمال حماة قريبة من المؤتفكة. الحموي، معجم البلدان، ج3، ص240.

([3]) المعرة مدينة كبيرة قديمة مشهورة من أعمال حمص بين حلب وحماة وتنسب إلى الصحابي البشير بن نعمان. الحموي، معجم البلدان، ج5، ص156.

([4]) بارين مدينة حسنة بين حلب وحماة من جهة الغرب. الحموي، معجم البلدان، ج1، ص321.

([5]) أبو الفداء، المختصر، ج3، ص163.

([6]) ابن واصل، مفرج الكروب، ج5، ص 168.

([7]) سنجار مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة الفراتية، بينها وبين الموصل ثلاثة أيام. الحموي، معجم البلدان،ج3، ص262.

والرقة[1] وعانة[2]، فقبل الصالح نجم الدين عرض الجواد ورحل إلى دمشق وترك ابنه تـــوران شاه[3] نائباً عنه في حصن كيفا[4].

وانضم إلى الصالح نجم الدين الكثير من الأمراء وتوزعت ولاءات الأمراء الأيوبيين بـــين العادل الثاني والصالح نجم الدين أيوب، فانضم كل من الناصر داود أمير الكرك والصالح إســماعيل صاحب بعلبك والناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز حاكم حلب وأســد الــدين شــيركوه الثــاني صاحب حمص إلى العادل الثاني، بينما انحاز المظفر تقي الدين صاحب حماة إلى الصالح نجم الدين أيوب ، وقد باءت محاولة الخليفة العباسي المستنصر بالله بالتوسط بين الأخوين بالفشل[5]، وأخــذت كتب الأمراء من مصر تتوالى على الصالح أيوب يستدعونه لتولي الحكــم فــي مصــر ووعــدوه بالمساعدة وأكدوا له أن كل البلاد سوف تعترف به سلطاناً[6] ، فالعادل أساء الســيرة فــي مصــر وانشغل عن مصالح الدولة باللهو والعبث[7].

([1]) الرقة مدينة مشهورة على الفرات بينها وبين حران ثلاثة أيام، وتعد من الجزيرة الفراتية لأنها من جانب الفرات الشرقي. الحموي، معجم البلدان،ج3، ص58.

([2]) عانة بلد مشهور بين الرقة وهيت ويعد في أعمال الجزيرة. الحموي، معجم البلدان، ج4، ص72.

([3]) الملك المعظم بن الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل المعروف بتوران شاه، كانت إقامته بحصن كيفا بديار بكر نائباً عن أبيه ولما توفي أبوه جاء إلى مصر والحرب ناشبة مع الفرنسيين على أبواب المنصــورة فهــزمهم ولبس خلعة السلطان، قتله المماليك بأمر من شجر الدر سنة (648هـ/1250م).الذهبي، سير أعــلام النــبلاء، ج16، ص330.

([4]) ابن واصل، مفرج الكروب، ج5، ص 200– 201.

([5]) المقريزي السلوك، ج1، ق2، ص 309.

([6]) ابن واصل مفرج الكروب، ج5، ص 206.

([7]) أبو الفداء، المختصر،ج3، ص163.

ولكن الصالح أيوب لم يتسرع بل فضل أن يتوقف في نابلس وذلك " خوفاً أن لا يكون لما كاتبوه به حقيقة، وعلم أن عسكره لا يقوم بحرب عسكر مصر فتوقف حتى تتبين له الأمور[1].

وهنا اغتنم الصالح إسماعيل صاحب بعلبك وشيركوه صاحب حمص فرصة غياب الصالح أيوب وتقدما للاستيلاء على دمشق في (637هـ/1239م)، فتضعضع موقف الصالح أيوب وانفصل عن جميع من كان معه من الأمراء كما انفصل عنه معظم العساكر لأن أهلهم وأولادهم في دمشق ولإدراكهم أنه لم يعد بمقدور الصالح أيوب تحقيق النصر، فالتجأ إلى نابلس ولم يبق معه سوى مائة من حرسه الخاص ثم توجه إلى الكرك بناءً على دعوة الناصر داود ولما وصل إليها اعتقله الناصر داود بقلعتها مع أصحابه[2].

ورفض تسليمه للعادل الثاني مقابل مائة ألف دينار كما رفض طلباً مماثلاً للصالح إسماعيل وصاحب حمص مقابل جزء من مدينة دمشق[3].

ولم يجهل صاحب الكرك أهمية الصالح أيوب ومكانته في الأسرة الأيوبية، فأطلق سراحه في سنة (637هـ/1239م) واتفق معه على أن تكون مصر للصالح أيوب وبلاد الشام والمشرق للناصر داود[4].

([1]) الدواداري، الدر المطلوب، ج7، ص335.

([2]) أبو الفداء، المختصر،ج3، ص164-165.

([3]) الدواداري، الدر المطلوب، ج7، ص338.

([4]) أبو الفداء، المختصر،ج3، ص166.

استشعر العادل الثاني هذا الخطر فعبأ قواته وحشدها في بلبيس[1] بينما زحف صاحب دمشق الصالح إسماعيل وحمص من الشمال لنصرته[2] فوقع الصالح أيوب وحليفه في مأزق خطير، غير أن الأمور كانت تتطور بسرعة للصالح أيوب، ذلك أن سياسة العادل الثاني الخرقاء أدت إلى نفور قادة عساكر مصر فقاموا بانقلاب عليه وجردوا حرسه الأكراد من سلاحهم وقبضوا عليه واستدعوا الصالح أيوب إلى مصر ليتولى الحكم فسار إليه بصحبة الناصر داود وجلس على عرش الدولة الأيوبية وسجن أخاه العادل الثاني[3]. وحين لمس عدم إخلاص المماليك الأشرفية[4] له وميلهم إلى عمه الصالح إسماعيل بدأ بشراء المماليك الترك وبنى لهم قلعة الروضة[5].

وكان الصالح إسماعيل يدرك تمام الإدراك أن الصالح نجم الدين أيوب لن يغفر له الطعنة التي وجهها له حينما أوهمه أنه يتجهز للمسير إليه لمساعدته في الوقت الذي كان يعمل فيه ضده وانقض على دمشق واستولى عليها، لذا قرر الصالح إسماعيل مهاجمة مصر، ولم يجد بداً من الاستعانة بالصليبيين فأعطاهم صفد[6] وشقيف[7] وصيدا وطبرية[8]

([1]) بلبيس مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشر فراسخ على طريق الشام فتحها عمرو بن العاص في سنة (18هـ/639م). الحموي، معجم البلدان، ج1، ص479.

([2]) ابن واصل، مفرج الكروب، ج5، ص259.

([3]) ابن واصل، مفرج الكروب، ج5، ص263– 265.

([4]) الأشرفية نسبة إلى الملك الأشرف موسى بن العادل. ابن واصل، مفرج الكروب، ج5، ص99.

([5]) ابن واصل، مفرج الكروب، ج5، ص275 – 278.

([6]) صفد مدينة في جبال عاملة المطلة على حمص بالشام، وهي من جبال لبنان. الحموي، معجم البلدان،ج3، ص412.

([7]) شقيف أرنون قلعة حصينة جداً في كهف من الجبل، قرب بانياس من أرض دمشق. الحموي، معجم البلدان، ج3، ص356.

([8]) طبرية بليدة مطلة على البحيرة المعروفة بها، وهي من أعمال الأردن في طرف الغور، بينها وبين دمشق ثلاثة أيام وكذلك بينها وبين بيت المقدس. ابن عبد الحق، مراصد الإطلاع، ج2، ص878.

وجبل عاملة[1] وسائر بلاد الساحل مقابل مساعدتهم له في الهجوم على مصر [2]، ولكن النصر كان كان حليف الصالح أيوب لأن الأمراء انفضوا عن الصالح إسماعيل وانضموا إلى جيش الصالح أيوب لأنه تحالف مع الصليبين [3].

ولم يجد الطرفان حلاً أفضل من التفاهم فترددت الرسل واتفقا سنة (641هـ/1243م) على ما يلي:

1. انتزاع إمارة الكرك من الناصر داود وتقسيمها بينهما.
2. يبقى الصالح إسماعيل حاكماً على دمشق.
3. يذكر اسم الصالح أيوب في الخطبة وينقش اسمه على السكة.
4. يطلق سراح المغيث عمر بن الصالح أيوب المعتقل في دمشق[4] .

إلا أن هذا الاتفاق فشل لأن الصالح نجم الدين أيوب كان يحرض الخوارزميين على مهاجمة دمشق فتحول الصالح إسماعيل إلى الناصر داود كما استنجد بالصليبيين مرة أخرى للتصدي للخوارزميين ومهاجمة مصر[5]، وسلمهم بيت المقدس وطبرية وعسقلان[6] وكوكب[7] كما وعدهم وعدهم بنصيب من مصر إن ملكها [8].

([1]) جبل عاملة من نواحي حلب. الحموي، معجم البلدان، ج4، ص470.

([2]) ابن واصل، مفرج الكروب، ج5، ص 302.

([3]) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص185.

([4]) ابن واصل، مفرج الكروب، ج5، ص 327 – 328 .

([5]) ابن واصل، مفرج الكروب، ج5، ص331.

([6]) عسقلان مدينة بالشام من أعمال فلسطين، على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين. الحموي، معجم البلدان، ج4، ص122.

([7]) كوكب اسم قلعة على الجبل المطل على مدينة طبريا حصينة رصينة تشرف على الأردن افتتحها صلاح الدين فيما افتتحه من البلاد ثم خربت فيما بعد. الحموي، معجم البلدان، ج4، ص494.

([8]) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج2، ص169.

وفي أوائل سنة (642هـ/1244م) عبر الخوارزميون نهر الفرات ونهبوا كل البلاد التي مروا بها وهاجموا بيت المقدس واستعادوها من الصليبين ثم ساروا إلى غزة، وحين جاءتهم العساكر من مصر التقوا مع جيوش التحالف من دمشق وحمص والكرك والصليبين في معركة واسعة بين عسقلان وغزّة انتصر فيها الخوارزمية وعساكر مصر[1].

وهنا التفت الصالح أيوب إلى دمشق والكرك ففي سنة (643هـ/1245م) تنازل الصالح إسماعيل عن دمشق مقابل الحصول على بعلبك وحوران واستولى فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ قائد الصالح أيوب على بيت المقدس ونابلس وبيت جبرين[2] والبلقاء وحاصر الكرك[3].

وسرعان ما تعرض نفوذ الصالح أيوب للخطر من الخوارزمية الذين لم يرضهم ما نالوه فاغتروا بأنفسهم وبالغوا في طلب المنح والأموال إذا كانوا يتوقعون الحصول على ثمن كبير من الصالح أيوب جراء خدماتهم له، فانضموا إلى الصالح إسماعيل وحاولوا استرداد دمشق لكن حلت بهم الهزيمة بفضل القوات الأيوبية التي قدمت من مصر والمساعدات التي قدمها صاحب حمص واستولى الصالح أيوب على بعلبك واعترف الأمراء الأيوبيون في شمال بلاد الشام بسلطته كما حصل على تقليد من الخليفة العباسي المستعصم لحكم الديار المصرية والشام والمشرق[4].

([1]) ابن واصل، مفرج الكروب، ج5، ص 336- 339.

([2]) بيت جبرين بلد بين بيت المقدس وغزة، بينه وبين بيت المقدس مرحلتان وبين غزة أقل من ذلك، كانت فيه قلعة حصينة خربها صلاح الدين لما استرد بيت المقدس. الحموي، معجم البلدان، ج1، ص519.

([3]) ابن واصل، مفرج الكروب، ج5، ص 348-350.

([4]) الدواداري، الدر المطلوب، ج7، ص358-360.

وهكذا استعادت الدولة الأيوبية وحدتها وأصبح السلطان الصالح أيوب يمتلك القاهرة ودمشق وبيت المقدس وأقام في دمشق ووفد إليه أمراء البيت الأيوبي لتقديم فروض الولاء والطاعة[1]، وجاءت وفاة الصالح أيوب سنة (647هـ/1249م) والحرب دائرة بين المسلمين والصليبين في مصر فيما يسمى بالحملة الصليبية السابعة التي قادها لويس التاسع[2] ملك فرنسا وقد عهد الصالح أيوب لابنه المعظم توران شاه (ت648هـ/1250م) بولاية العهد أثناء مرضه[3] ونظراً لأن توران شاه لم يكن موجوداً بمصر فقد استقر رأي شجر الدر (ت655هـ/1257م) [4] أرملة الصالح أيوب، وفخر الدين بن الشيخ قائد الجيش على كتمان خبر وفاة السلطان ريثما يتم استدعاء السلطان الجديدة من حصن كيفا وديار بكر بالجزيرة، حتى لا يؤثر خبر موته في معنويات المسلمين في وقت يواجهون فيه عدواً عنيداً هو الملك لويس التاسع ملك فرنسا[5].

([1]) عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص133.

([2]) تسميه المصادر العربية بولش الإفرنجي المعروف بالفرنسيس من أجل ملوك الإفرنج وأكثرهم عساكر وأموالاً، قصد الديار المصرية وملك دمياط ، ثم بعد ذلك أسر وبقي في أيدي المسلمين مدة ثم أطلق (ت661 هـ /1263م) الكتبي، محمد بن شاكر (764 هـ /1362م) فوات الوفيات، ط1، ج1، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1973، ص231-232.

([3]) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي ج2، ص 176.

([4]) شجر الدر أم خليل الصالحية جارية الملك الصالح نجم الدين أيوب، لما توفي الملك الصالح أخفت خبر وفاته وأرسلت إلى إبنه توران شاه فحضر، ولكنه أرسل إليها بعد ذلك يهددها ويطلب المال ، فدبرت له مؤامرة وقتلته، وتقدمت للملك فخطب لها على المنابر وضربت السكة باسمها، ثم تزوجت بالمعز أيبك، قتلت سنة (655هـ/1257م) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج6، ص219.

([5]) ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت874هـ/1496م)، النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، ط2، ج6، دار الكتب والوثائق القومية، مصر 2005 ص373 .

وصل توران شاه إلى مصر سنة (647هـ/1249م) وتسلم مقاليد الحكم من أرملة والده، وبعد وصوله تمكن المسلمون من إنزال الهزيمة بالحملة الصليبية السابعة ووقع لويس التاسع في الأسر مع الكثير من فرسان الحملة[1].

ويبدو أن عبث توران شاه وافتقاره إلى الحنكة السياسية وعدم المعرفة بطبيعة الدولة الأيوبية في مصر كان مؤذناً بنهايته، فقد عزم من ناحية على القضاء على المماليك البحرية ومن ناحية ثانية كان يسيء إلى شجر الدر فأوعزت إلى المماليك بالتخلص منه وقتلوه في (648هـ/1250م) [2].

وبتسلم شجر الدر لمقاليد الحكم لم يرض الأمراء الأيوبيون بذلك فهم ظلوا يعتقدون أنهم أصحاب الحق الشرعي، فقد رفض المماليك القيمرية[3] أن يحلفوا يمين الولاء والطاعة لشجر الدر وكتبوا إلى الناصر يوسف الأيوبي[4] صاحب حلب يحثونه للقدوم إلى دمشق يملكها، فاستجاب لدعوتهم ودخل دمشق سنة (648هـ/1250م). وضم الناصر يوسف القدس وفلسطين إليه وخضعت له عجلون والسلط وبصرى[5] وصرخد[6] وأعمالها وتقدمت عساكره صوب غزة[7]، أقلقت هذه التطورات المماليك البحرية فقرروا

([1]) الدواداري، الدر المطلوب، ج7، ص376-379.

([2]) الدواداري، الدر المطلوب، ج7، ص381-383.

([3]) المماليك القيمرية هم أمراء الأكراد نسبةً إلى قيمر " بين الموصل وبحر خلاط وآن "، وقد انضم القيمرية إلى الخوارزمية وهم الذين جندهم السلطان الظاهر بيبرس ووطنهم في غزة. الحموي، معجم البلدان، ج4، ص424.

([4]) الناصر يوسف بن محمد غازي صاحب حلب وفي سنة (648هـ/1250م) دخل دمشق واستولى عليها، ثم سارع ليأخذ مصر فانكسر، كان جواداً حسن الأخلاق، أنشأ بدمشق مدرسة ورباط، قتله المغول سنة (658هـ/1260م) الذهبي، سير أعلام النبلاء،ج23، ص204-206.

([5]) بصرى من أرض الشام من أعمال دمشق وهي مدينة حوران وفي شرقي هذه المدينة بحيرة تجتمع فيها مياه دمشق. الحموي، معجم البلدان،ج1، ص441.

([6]) صرخد من أعمال حوران بدمشق. الحموي، معجم البلدان، ج3، ص401.

([7]) الدواداري، الدر المطلوب، ج7، ص385-386.

إقامة صبي من بني أيوب لامتصاص نقمهم فانتخبوا الأشرف موسى بن المسعود بن الكامل، وكان عمره دون العاشرة وأعلنوه سلطاناً على مصر في (648هـ/1250 م) ويبدو أن الأمراء الأيوبيين فطنوا لتلك الحيلة وأدركوا أن الأشرف موسى لم يكن له غير الاسم في حين كانت الأمور كلها بيد الأمير عز الدين أيبك[1] فسار الأيوبيون بقيادة الناصر يوسف تجها مصر إلا أنهم هزموا عند العباسة[2] بين مدينتي بلبيس والصالحة[3]، كان لهذه الموقعة أثر في تثبيت أركان الدولة المملوكية، إلا أن العداء لم يقدر له أن يستمر بين الأيوبيين والمماليك لظهور خطر جديد هدد العالم الإسلامي كله وهو الخطر المغولي، وقد نجح الخليفة المستعصم في التوسط وعقد صلح بين الطرفين على أن يستعيد المعز أيبك ساحل بلاد الشام، وألا يؤذي الناصر يوسف أحداً من المماليك البحرية، فلم يجد المماليك البحرية ملجأً هذه المرة إلا المغيث عمر صاحب الكرك[4]، وقد تعرض المعز أيبك سنة (655هـ/1257م) لمؤامرة من زوجته شجر الدر أدت إلى مقتله بويع على إثرها ابنه نور الدين علي ولقب بالملك المنصور[5].

وفي ظل هذه الظروف قام المماليك الذين التجأوا إلى المغيث عمر في الكرك بتحريضه على غزو مصر يقودهم في ذلك بيبرس البندقداري فاستجاب المغيث لهم وأمدهم بالسلاح والمال وخرجت مجموعة من المماليك تبلغ ألف فارس تجاه الحدود المصرية لغزوها والسيطرة عليها[6] فتصدى لهم قطز[7] وأنزل بهم الهزيمة سنة (655هـ/1258م)[8].

([1]) ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ج7، ص 6.

([2]) العباسة بليدة أول ما يلقى القاصد لمصر في الشام من الديار المصرية. الحموي، معجم البلدان، ج4، ص75.

([3]) أبو الفداء، المختصر،ج3، ص184.

([4]) أبو الفداء، المختصر،ج3، ص193.

([5]) أبو الفداء، المختصر،ج3، ص192.

([6]) الدواداري، الدرة الزكية، ج8، ص30.

([7]) قطز بن عبد الله المعزي، كان مملوكا للمعز " أيبك " التركماني، تسلطن مكانه سنة (657هـ/1259م) نهض لقتال " التتار " وانتصر عليهم في " عين جالوت " سنة (658هـ/1260م) وبينما هو في الطريق تقدم منه أتابك عسكره " بيبرس " ووراءه عدد كبير من أمراء الجيش، فتناولوه بسيوفهم فقتلوه. ودفن بالقصير. ثم نقل إلى القاهرة. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 7، ص72.

(8) أبو الفداء، المختصر،ج3، ص193.

ولأن الوضع كان حرجاً في مصر والشام حيث المغول الذين أسقطوا الخلافة العباسية في بغداد وهم في طريقهم إلى بلاد الشام ومصر، وجد المظفر قطز الفرصة سانحة لعزل المنصور علي واعتلاء الحكم في (657هـ/1259م) وكان لانتصاره على المغول في عين جالوت سنة (658هـ/1260م) أن ثبت أركان الدولة المملوكية، وقد استثمر قطز هذا الانتصار وتقدم إلى بلاد الشام ودخل دمشق بعد خمسة أيام وكافأ من ناصره من الأمراء الأيوبيين وأقر موسى على حمص والرحبة وتدمر وأقر المنصور الثاني صاحب حماة على إمارته[1].

ومن هنا نخلص إلى أن من المميزات التي اتسم بها عصر الدولة الأيوبية في الفترة الممتدة ما بين (628هـ/1230م-659هـ/1261م) الصراع بين سلاطين الأسرة الأيوبية في مصر، وبين ملوك بلاد الشام الأيوبيين، والتي تمثلت بالصراع في أكثر الأحيان بين الإخوة بعضهم مع بعض على السلطة، وكذلك الخطر الخارجي الذي هدد الدولة الأيوبية ممثلاً بأطماع الفرنج باحتلال مدن الساحل الشامي وتهديدهم لمصر متجسداً بحملة لويس التاسع على دمياط سنة (647هـ/1249م) وأيضاً في غزو المغول لمدينة بغداد سنة (656هـ/1258م) وتدميرهم لها وزحفهم على بلاد الشام وتخريبهم لمدنه حتى باتوا يشكلون خطراً داهماً على مصر.

([1]) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص256.

الفصل الأول

التصوف المصطلح والنشأة

المبحث الأول: المصطلح

لم يُعرف التصوّف كعلم له أسسه ومناهجه وغاياته إلا في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، وما سبق هذه الفترة كان عبارة عن مراحل تصوّر الحياة الروحية عند المسلمين، والتي كانت تعتمد على تطبيق ما جاء به القرآن من الأخلاق الفاضلة التي تنظّم حسن التعامل مع الله من جهة، والمسلمين مع بعضهم من جهة أخرى، ثم الاقتداء بحياة النبي صلى الله عليه وسلم وأخلاقه، وكذلك صحابته الكرام الذين أخذوا عنه مباشرة وشاهدوا حياته عن كثب.

تعددت الآراء واختلفت في الأصل الذي أخذت منه كلمة "التصوف" فهناك من يرجعها إلى أنها مشتقة من لبس الصوف ، فقال محمد بن إبراهيم الكلاباذي (ت380هـ/990م)[1] : (قال قوم إنما سموا الصوفية للبسهم الصوف)[2]، وسئل أبو علي الروزباري عن الصوفي فقال:(من لبس الصُّوف على الصفاء وَأطْعم الْهوى ذوق

([1]) محمد بن إبراهيم بن يعقوب الكلاباذي، من حفاظ الحديث من أهل بخارى له بحر الفوائد والتعرف لمذهب أهل التصوف (ت380 هـ /990م) الأدنروي، أحمد محمد،(من وفيات القرن 11 هـ /17م)، طبقات المفسرين، ط1، تحقيق سليمان الخزي، مكتبة العلوم والحكم، السعودية 1997 ص85.

([2]) الكلاباذي، محمد بن إبراهيم (ت380 هـ /990م) التعرف لمذهب أهل التصوف، دار الكتب العلمية، بيروت19 ص21.

الْجفَاء وَكَانَت الدُّنْيَا مِنْهُ على الْقَفَا وسلك منهاج الْمُصْطَفى)[1]، لأن لبس الصوف دأب الأنبياء، وشعار الأولياء والأصفياء، وتكثر في ذلك الروايات والأخبار[2]، ونسب بعض الصوفية أنفسهم إلى الصفاء، فلصفاء أسرارهم وانشراح صدورهم وضياء قلوبهم صحت معارفهم بالله فلم يرجعوا إلى الأسباب ثقة بالله عز وجل وتوكلاً عليه ورضاً بقضائه[3]، وأن الصوفي هو أحد خاصة أهل الله الذين طهر الله قلوبهم من كدورات الدنيا[4]، وفي ذلك يقول بشر بن الحارث(ت227هـ/841م)[5]:

(الصوفي من صفا قلبه لله)[6] ، ومنهم من أرجعها إلى أصحاب الصف الأول بين يدي الله تعالى، فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث القرب من اللَّه تعالى، يقول شهاب الدين السهروردي[7] : (قيل سموا صوفيه لأنهم

([1]) الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، ص25.

([2]) السراج، عبد الله بن علي (ت378 هـ /988م) اللمع، دار الكتب الحديثة، مصر 1960، ص41.. G. J،E،annmuller and others .Sufi. Shorter Encyclopedia of Islam .Leiden Brill 1974، p581.

([3]) الالوسي، شهاب الدين أبو الثناء محمود (ت1270 هـ /1853م)، الفيض الوارد على روض مرثية مولانا خالد، المطبعة الكستلية، د. م. 1861م، ص100-101.

([4])نيكلسون، رينولد، في التصوف الإسلامي وتاريخه، نقله إلى العربية أبو العلا عفيفي ، لجنة التأليف والنشر القاهرة 1956، ص66.

([5]) بشر بن الحارث بن علي بن عبد الرحمن المروزي، أبو نصر، المعروف بالحافي: من كبار الصالحين. له في الزهد والورع أخبار، وهو من ثقات رجال الحديث، من أهل (مرو) سكن بغداد وتوفي بها سنة (227 هـ /841م). ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع (ت230 هـ /845م) الطبقات الكبرى، ط1،ج7، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1968ص342 . الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك(ت764 هـ /1362م)، ج10، تحقيق احمد الارناؤوط، ، دار إحياء التراث، بيروت، 2000 ص91-92.

([6]) الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، ص21.

([7]) أبو حفص عمر بن محمد البكري الملقب بشهاب الدين السهروردي، كان فقيهاً شافعي المذهب كثير الاجتهاد في العبادة توفي في بغداد (632 هـ /1234م). ابن خلكان، أحمد بن محمد بن إبراهيم (ت681 هـ /1282م) وفيات الأعيان،ج10، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1994 ص447-448. ابن قاضي شهبه، تقي الدين بن احمد (ت851 هـ /1447م) تاريخ ابن قاضي شهبه، ج3، تحقيق عنان درويش، دمشق 1977 ص81-82.

في الصف الأول بين يدي الله عز وجل بارتفاع همهم وإقبالهم على الله تعالى بقلوبهم ووقوفهم بين يديه)[1]، وقيل هم أهل الصفة وهم فقراء المهاجرين على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم الذين قال الله تعالى فيهم (لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ) [2].

وذهب ابن الجوزي بعيداً ونسب أصل الكلمة إلى آل صوفه يقول:(ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد فتخلوا عن الدنيا وانقطعوا إلى العبادة واتخذوا في ذلك طريقة تفردوا بها وأخلاقاً تخلقوا بها، وأول من انفرد بخدمة الله تعالى عند بيته الحرام رجل يقال له صوفه...)[3]، وتنسب الصوفية أيضاً إلى " صوفة القفا " وهي الشعرات النابتة في مؤخرة الرأس[4].

ومنهم من ربط أصل الكلمة بمصادر غير عربية مثل الكلمة اليونانية (Sophy) وهي كلمة يونانية تعني "الحكماء"[5] وأن التصوف الإسلامي كان أشد تأثراً بالتصوف اليوناني المسيحي قبل الإسلام، وأن رواد الصوفية الأوائل كابن عربي (ت638هـ/1240م) [6] استقوا فلسفتهم من هذه الكلمة، وقد بقيت الكلمة اليونانية

([1]) السهروردي، عمر بن محمد (ت632 هـ /1234م) عوارف المعارف، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت 1966 ص65 .

([2]) القرآن الكريم، سورة البقرة، آية 273. السهروردي، عوارف المعارف، ص65.

([3]) ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت597 هـ /1200م)، تلبيس إبليس، ط1، دار الفكر، بيروت 2001، ص145-146 .

([4]) ابن الجوزي، تلبيس إبليس، ص146.

([5]) البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد (ت440 هـ /1047م) تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذوله، ط2، عالم الكتب، بيروت 1983 ص27. عفيفي، أبو العلا، التصوف الثورة الروحية في الإسلام، دار الشعب، بيروت 1969، ص37.

([6]) محمد بن علي بن عربي الطائي الأندلسي لقب بمحي الدين بن عربي، ولقب بالشيخ الأكبر من أئمة المتكلمين، وهو صاحب القول بوحدة الوجود، من مؤلفاته الحكم، الفتوحات المكية، الوصايا، (ت638هـ/1240م) ابن الجزري، شمس الدين أبو خير محمد بن محمد (ت833 هـ /1429م) غاية النهاية في طبقات القراء، ط2 ، ج2، عني بنشره برجستراس، دار الكتب العلمية ، بيروت 1995 ص334.

(Sophy) كما هي بنفس اللفظ والمعنى (صوفي)، ويبدو أن هذا الرأي هو الأضعف من بين هذه الآراء، فلا يوجد دليل إيجابي يرجح افتراض أن الكلمة مشتقة من أصل يوناني[1].

ويأتي عبد الكريم بن قاسم القشيري (ت466هـ/1072م)[2] ليهدم كل هذه الآراء قائلاً: (وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق، والأظهر فيه انه كاللقب، فأما قول من قال أنه من الصوف، وتصوف إذا لبس الصوف، كما يقال تقمص إذا لبس القميص فذلك وجه، ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف، ومن قال أنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فالنسبة إلى الصفة لا تجئ على نحو الصوفي، ومن قال إنه من الصفاء فاشتقاق الصوفي في الصفاء بعيد في مقتضى اللغة، وقول من قال إنه مشتق من الصف فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث الحاضرة من الله تعالى فالمعنى صحيح، ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف، ثم أن هذه الطائفة أشهر من أن يحتاج في تعيينهم إلى قياس لفظ واستحقاق اشتقاق)[3].

خلاصة القول واستناداً إلى الآراء السابقة، نتوصل إلى تعليل التسمية كما أجمع معظم الباحثين بأنها اشتقاق من الصوف ظاهر لبسهم، فهو لباس الأنبياء من ناحية وقد

([1]) نيكلسون، في التصوف الإسلامي وتاريخه، ص80.

([2]) أبو القاسم عبد الكريم بن قاسم القشيري النيسابوري، مصنف الرسالة القشيرية، كان إماماً فقيهاً أصولياً مفسراً كاتباً ذا فضائل جمة (ت466 هـ /1072م) ابن الأثير، محمد بن عبد الكريم الشيباني(ت 630هـ/1232م)، الكامل في التاريخ، ج8، تحقيق عمر تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت 1997، ص403. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت748 هـ /1347م) سير أعلام النبلاء، ط1، ج18، تحقيق شعيب الارناؤوط ، مؤسسة الرسالة، بيروت 1984 ص142.

([3]) القشيري، عبد الكريم بن قاسم (ت465 هـ /1072م)، الرسالة القشيرية، تحقيق زكريا الأنصاري، دار أسامة، بيروت 1987ص 115 .

تميز به الصوفية من ناحية ثانية، وهو وسيلتهم في القسوة على أبدانهم بخشونة ملمسه من ناحية ثالثة، وهذا ما يميل إليه عبد الله بن علي الطوسي (ت378هـ/988م)[1] صاحب كتاب اللمع، والكلاباذي (ت380هـ/990م) في كتاب التعرف، وابن خلدون (ت808هـ/1405م)[2] في المقدمة.

المبحث الثاني: النشأة والتطور التاريخي

إن كلمة (صوفية) مستحدثة إذ لم تكن من الألقاب التي أطلقت على الصحابة أو أهل الجيل الثاني (التابعين) لأن الإقبال على الدين والزهد في الدنيا كان عاماً بين المسلمين في هذه الفترة، فما كانت هناك حاجة إلى اسم خاص يمتاز به الزهاد[3]، ولكن لما فشا الإقبال على الدنيا وجنح الناس إلى متاع الحياة، دعت الحاجة إلى وجود صفة يمتاز بها الخواص الذين كانت لهم عناية بأمر الدين[4]، أما أول من أطلق عليه لقب صوفي، فقد دار البحث حول ثلاثة أشخاص عاشوا في نفس الفترة الزمنية تقريباً، وهم أبو هاشم الكوفي وجابر بن

([1]) عبد الله بن علي الطوسي الزاهد شيخ الصوفية، وصاحب كتاب اللمع في التصوف، وروى عن جعفر الخلدي (ت378 هـ /988م) الصفدي، الوافي بالوفيات ،ج17، ص182. ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد(ت 1089ه/1678م) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط2، ج4، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق 1986 ص413.

([2]) عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن خلدون خرج من تونس بعدما نهل من العلوم وتصدر للإفتاء بالقاهرة ثم تولى قضاء المالكية بمصر واشتهر بالمقدمة (ت 808 هـ /1405م). ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت 874هـ/1470م)،، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، ج7، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1988 ص205–210. ابن العماد، شذرات الذهب، ج9، ص114.

([3]) الرومي، صهيب، التصوف الإسلامي، ط1، بيسان للنشر، بيروت 2007، ص58 .

([4]) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت808 هـ /1405م)، مقدمة ابن خلدون، مكتبة الأسرة، وزارة الثقافة 2009، ص517 .

حيان وعبدك الصوفي، أما أبو هاشم الكوفي (ت150هـ/767م) [1]، فكان عربياً من الكوفة قضى معظم حياته في الشام[2]، ويقول في ذلك الجامي :(إن أبا هاشم أول من دعي بالصوفية، ولم يسم أحد قبله بهذا الاسم) [3]، ويُروى أن أبا هاشم هو أول من بنى خانقاه للصوفية في الرملة[4] بالشام[5] دون أن يحدد السنة، ولكن يذكر الجامي أن الذي بناها هو أميرها النصراني، وذلك (أن الأمير ذهب للقنص، فشاهد شخصين من هذه الطائفة الصوفية، فسر من معاملتهما وأخلاقهما ، فسألهما : هل لكم من مكان تأوون إليه ؟ قالا: لا، قال: فإني أقيم لكما محلاً تأويان إليه ، فبنى لهما هذه الخانقاه في الرملة وكان ذلك في حدود المائتين من الهجرة)[6].

([1]) أبو هاشم الكوفي (الصوفي) كان مشهوراً بكنيته شيخاً في الشام وكوفي الأصل كان معاصراً لسفيان الثوري (ت150 هـ /767م) الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله (ت430 هـ /1038م) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ط4، ج10، دار الكتاب العربي، بيروت 1984 ص225 .

([2]) عميرة، عبد الرحمن، التصوف الإسلامي منهجاً وسلوكاً، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة. د. ت، ص7.

([3]) الجامي، الملا نور الدين عبد الرحمن بن أحمد (ت898 هـ /1492م)، نفحات الأنس من حضرات القدس، تحقيق محمد الجادر، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 2003، ص45-46 .

([4]) الرملة مدينة بفلسطين وكانت قصبتها، وكانت رباطاً للمسلمين، طولها خمس وخمسون درجة وثلثان، وعرضها اثنتان وثلاثون درجة وثلثان، وبينها وبين بيت المقدس اثنا عشر ميلاً. الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت626 هـ /1229م) ، معجم البلدان، ج3، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1979 ص69-70. ابن عبد الحق، عبد المؤمن بن شمائل البغدادي (ت739 هـ /1338م) مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ط1، ج2، دار الجيل، بيروت 1992 ص633. الحميري،أبو عبد الله محمد بن عبدالله (ت900 هـ /1495م) الروض المعطار في خبر الأقطار، ط2، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت 1980 ص25.

([5]) الجامي، نفحات الأنس من حضرات القدس، ص45-46. نيكلسون، في التصوف الإسلامي وتاريخه، ص3.

([6]) الجامي، نفحات الأنس من حضرات القدس، ص46-47.

والثاني هو جابر بن حيان(ت200هـ/815م) [1]، يقول ماسينيون في ذلك: (ورد لفظ صوفي لأول مرة في التاريخ في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي، إذ نعت به جابر بن حيان، وهو صاحب كيمياء شيعي من أهل الكوفة له في الزهد مذهب خاص، ثم تبدو أيضاً في حوالي ذلك الوقت في مؤلفات المحاسبي[2] والجاحظ مطلقةً على فرقة من العارفين كانت قد نشأت في الكوفة) [3]، ولكن من المستبعد أن يكون لجابر بن حيان علاقة بالتصوف والزهد، إذ لم يرد في سيرته ما يدل على زهده في الدنيا، بل ورد عنه اشتغاله بالعلوم الطبيعية ونبوغه فيها[4]، ويضاف لذلك أنه لم يرد اسمه في كتب التراجم الصوفية على أنه منهم. والثالث هو عبدك الصوفي (ت220هـ/835م) [5] وكان رجلاً معتزلاً الناس زاهداً في بغداد، وكان أول من لقب بلقب الصوفي، وهذا اللفظ كان يطلق في تلك الأيام على بعض زهاد الشريعة من

([1]) جابر بن حيان بن عبد الله الكوفي، فيلسوف كيميائي، كان يعرف بالصوفي، من أهل الكوفة، وأصله من خراسان. اتصل بالبرامكة، وانقطع إلى أحدهم جعفر بن يحيى، وتوفي بطوس سنة (200 هـ /815م) له تصانيف كثيرة قيل: عددها 232 كتاباً، وقيل: بلغت خمسمائة، ضاع أكثرها، ومن كتبه (مجموع رسائل)، و (أسرار الكيمياء) و (علم الهيئة) و (أصول الكيمياء). الصفدي، الوافي بالوفيات، ج11، ص27–29. الكتبي، محمد بن شاكر (764 هـ /1362م) فوات الوفيات، ط1، ج1، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1973 ص275.

([2]) الحارث بن أسد المحاسبي الزاهد من أهل بغداد كان عالماً فهماً وله مصنفات في أصول المعاملات وكتب في الزهد (ت243 هـ /857م) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص57–58. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج12، ص110–111.

([3]) ماسينيون، تصوف، دائرة المعارف الإسلامية، م5، ص266.

([4]) القفطي، علي بن يوسف بن إبراهيم الشيباني (ت646 هـ /1248م) أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ط1، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت 2005 ص124.

([5]) عبدك الصوفي من قدماء المشايخ البغداديين قبل السري وبشر بن الحارث، وكان من أورع المشايخ وأهيبهم (ت210 هـ /825م). ابن الخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت (ت463 هـ /1072م) تاريخ بغداد وذيوله، ط1، ج16، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت 1997 ص252–253 .

الكوفيين)[1]، ولكن ورد أنه كان يرأس فرقة من الزنادقة زعموا أن الدنيا كلها حرام لا يحل الأخذ منها بشيء إلا القوت[2]، وقيل أنه كان ممن يحرم على نفسه أكل اللحم[3]، وكل ما ورد في سيرته لا يدل على أنه كان مشهوراً بالصلاح ولا بالتقوى، وإنما كان رجلاً يرأس فرقة من المتطرفين، فلا يوجد ما يؤهله لأن يكون هو أول صوفي، إذن يظهر أن أبا هاشم أحق بأن يكون أول من سمي صوفياً من بين المذكورين، وأن اسم صوفي هو حديث لم يكن في فترة النبوة أو فترة الصحابة والتابعين ونلاحظ شبه اتفاق على أن القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي شهد بدايات الحركة الصوفية.

ويؤيد ذلك المؤرخ ابن خلدون بقوله:(لما فشا الإقبال على الدنيا وجنح الناس إلى متاع هذه الحياة، دعت الحاجة إلى وجود صفة يمتاز بها بعض الخواص، فظهرت هذه التسمية وانفرد بها المقبلون على العبادة وقد اشتهر هذا الاسم قبل المائتين)[4]، فالقرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي شهد إقبال الناس على الدنيا، وكثرت المعاصي مقارنةً مع القرن الذي سبقه، فأعرض الصالحون والزهاد عن ذلك وهالهم إقبال الناس إلى الدنيا فانزووا جانباً يتدارسون أمور دينهم غير مبالين بأمور الدنيا[5].

([1]) ابن الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد وذيوله، ج16، ص253. ماسينيون، تصوف، دائرة المعارف الإسلامية، م5، ص266.

([2]) الملطي، محمد بن أحمد بن عبد الرحمن (ت377 هـ /987م) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، تحقيق محمد زاهد الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث، مصر1949 ص93.

([3]) الملطي، التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، ص93-94. ماسينيون، تصوف، دائرة المعارف الإسلامية، م5، ص266.

([4]) ابن خلدون، المقدمة، ص517.

([5]) الأدفوي، جعفر بن ثعلب (ت748 هـ /1347م)، الموفي بمعرفة التصوف والصوفي، تحقيق محمد صالحية، ط1، مكتبة دار العروبة، الكويت 1988، ص5 .

وفي القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، نلحظ تطوراً آخر يختلف تمام الاختلاف عن العصور السابقة في شخصية معروف الكرخي (ت200هـ/817م)[1]، إذ وصف بأنه رجل غلب عليه الشوق إلى الله تعالى، وكان تصوفه مغايراً لما سبقه لأن من سبقوه كان هدفهم وغايتهم عملية، وهي النجاة بالنفس من عذاب الآخرة، أما تصوفه فهو وسيلة للمعرفة كما يدل عليه تعريفه للتصوف الذي يقول فيه:(إنه الأخذ بالحقائق، واليأس مما في أيدي الخلائق)[2]، ومع ذا النون المصري (ت245هـ/859م)[3] حدث تطور آخر للتصوف، إذ يعتبر واضع أسس التصوف والذي يقول عنه ابن تغري بردي:(أنه أوّل من تكلّم في مصر عن الأحوال والمقامات)[4]، ونستطيع القول أن الحركة الصوفية ظلت إلى جانب الزهد بصورة عامة حتى القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، بالرغم مما خالطها من ابتعاد عن جادة الصواب أحياناً[5].

([1]) معروف الكرخي، أبو محفوظ معروف بن فيروز، الكرخي الصالح، كان مشهوراً بإجابة الدعوة وأهل بغداد يستسقون بقبره ومن تلاميذه سري السقطي (ت200 هـ /815م) وقيل (ت201 هـ /816م)، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص232-233. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت748ه/1347م)، العبر في خبر من غبر ط1، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت 1985 ص262.

([2]) القشيري، الرسالة القشيرية، ص116. العطار، فريد الدين (ت627 هـ /1230م) تذكرة الأولياء ، ط1، تحقيق عاصم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت 2010 ص 302 . نيكلسون، في التصوف الإسلامي وتاريخه، ص4-5.

([3]) أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم المعروف بذا النون المصري، أحد رجال الطريقة، كان أوحد وقته علماً وورعاً، وهو أول من تكلم بمصر في ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية توفي بالجيزة سنة (245 هـ /859م)، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص315. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج11، ص532.

([4]) ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت 874هـ/1470م)، النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، ط2، ج1، دار الكتب والوثائق القومية، مصر 2005 ص753.

([5]) الأدفوي، الموفي بمعرفة التصوف، ص5.

إن البعض من الباحثين حاول أن يصنف متصوفة القرون الثلاثة الهجرية الأولى في مدارس وأهمها:

1- مدرسة البصرة:

قامت هذه المدرسة على يد عدد من الصحابة والتابعين أشهرهم أبو موسى الأشعري[1] الذي كان من أبرز قرّاء الرسول صلى الله عليه وسلم وأرسله عمر بن الخطاب والياً على البصرة، وعامر بن عبد قيس التميمي[2] الذي أعلن الثورة الروحية الأولى في البصرة على غرار ما فعل أبو ذر الغفاري، وقد بدأ عامر حياته الروحية بتوجيه أنظار الناس إلى محاسبة النفس وترقيق قلوبهم عن طريق الوعظ والارشاد ثم صار يصوم النهار ويقوم الليل، وكثر خوفه من النار وأقبل على البكاء فترة إلى أن ذهب عنه الخوف وتملّكه حب الله، وعنه أخذ الكثير من أهالي البصرة كالحسن البصري وأهالي الشام كأبي سليمان الداراني ومنهم هرم بن حيان[3] أحد القرّاء الذين جمعوا بين العلم والفقه والعبادة، وكان على اتصال بالصحابي العابد حممة[4] حيث كان يقضي معه الليالي في العبادة.

([1]) الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ج1، ص258.

([2]) عامر بن عبد قيس التميمي كان من العباد والزهاد التابعون وروى عن عمر بن الخطاب توفي أيام معاوية. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج4، ص16. الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ج2، ص87.

([3]) هرم بن حيان العبدي الأزدي، من بني عبد القيس، قائد فاتح، من كبار النساك، من التابعين، كان أمير بني عبد القيس في الفتوح، وولي بعض الحروب في أيام عمر وعثمان، وكان من سكان البصرة، عده ابن أبي حاتم في الزهاد الثمانية، من كبار التابعين، وسماه الجاحظ في النساك الزهاد من أهل البيان. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج7، ص131.

([4]) من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم خرج إلى أصبهان غازياً في خلافة عمر فقال اللهم إن حممة يزعم أنه يحب لقاءك فإن كان حممة صادقا فاعزم له عليه وصدقه اللهم لا ترد حممة من سفره هذا فأخذه بطنه فمات. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج1، ص870. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج13، ص117.

ومنهم أيضاً الأحنف بن قيس[1] الذي رسم للبصريين طريق الصبر، ومما يُروى عنه في ذلك أن ابن أخيه جاء يشكو إليه من وجع في ضرسه، فقال له الأحنف: لقد ذهبت عيني منذ أربعين سنة ما ذكرتها لأحد[2]، والأحنف من شيوخ الحسن البصري[3] وابن أخيه اياس بن قتادة التميمي[4]، ومنهم أبو العالية الرياحي، الذي نذرته أمه لوجه الله وجاءت إلى المسجد تقول: " اشهدوا يا أهل المسجد أنه سائبة لله"[5]، ومنهم صلة بن أشيم[6] الذي اختط طريق التعبد في المقابر واعتبره معاصروه رجل الشفاعة الكبير حيث كان دعاؤه مستجاباً ثم صارت هذه الفكرة تعرف بالغوث عند الصوفية لاحقاً، ومنهم معاذة

([1]) الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين المري السعدي المنقري التميمي، أحد العظماء الدهاة الفصحاء الشجعان الفاتحين، يضرب له المثل في الحلم، ولد في البصرة وأدرك النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يره، ووفد على عمر، حين آلت الخلافة إليه، في المدينة، فاستبقاه عمر، فمكث عاماً، وأذن له فعاد إلى البصرة، وعاصر الأحداث كلها حتى توفي سنة (72 هـ /691م). ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج7، ص66. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص499.

([2]) ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت 597 هـ /1200م)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر ومصطفى عبد القادر، ط1، ج6، دار الكتب بيروت، لبنان 1992 ص95. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج5، ص350.

([3]) الحسن بن يسار البصري، تابعي، كان إمام أهل البصرة، وحبر الأمة في زمنه، وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك، ولد بالمدينة، وشب في كنف علي بن أبي طالب، واستكتبه الربيع ابن زياد والي خراسان في عهد معاوية، وسكن البصرة، وعظمت هيبته في القلوب فكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم (ت110 هـ /728م). ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص69.

([4]) اياس بن قتادة بن أوفى بن أوفى بن عتبة بن تميم روى عن عمر بن الخطاب. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج7، ص128.

([5]) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج6، ص297.

([6]) صلة بن أشيم العدوي من كبار التابعين من أهل البصرة، وكان ذا فضل وورع وعبادة وزهد، كنيته أبو الصهباء كان يصلي حتى ما يستطيع أن يأتي الفراش إلا حبواً، وله مناقب كثيرة جداً (ت62 هـ /682م). ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر(ت774 هـ /1372م) البداية والنهاية، ط1، ج9، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1988 ص21.

بنت عبد الله[1] التي كانت تدعو للعبادة ثم انقطعت لها من شدة خوفها من النار وحبها في التقرب إلى الله[2]، وحبيب العجمي الذي تخلى عن الدنيا والترف وأقبل على الحسن وأكثر من البكاء وصار يموّل العباد وينفق عليهم، وصار المرضى يقصدونه للدعاء وخاصة المصابون بالبرص، والأطفال الذين لا ينبت لهم شعر[3]، ومن عبّاد البصرة مالك بن دينار[4] الذي شغل بالقرآن شغلاً تاماً اشتغل بالذكر وصار يدعو له، ومن أقواله في ذلك : " ما تنعّم المتنعّمون بمثل ذكر الله"، ثم لبس الصوف ودعا إليه وخاض في دقائق القلب وحزن وحبه، وهو أول من تنبّه إلى حقيقة المعرفة[5]، ومنهم محمد بن واسع[6] أحد المقرّبين من الحسن البصري الذي كان يسمّيه زين القرّاء وقد تميّز بالمسكنة وإخفاء الصوم وكثرة البكاء[7]، ومنهم عبد الواحد بن زيد[8] أول روّاد نظرية الحب الإلهي الممتزجة الممتزجة بالتأمل الحزين، ثم تطور هذا الحب على يد عتبة بن غلام[9] حيث وصل إلى

([1]) معاذة بنت عبد الله، أم الصهباء العدوية، فاضلة، من العالمات بالحديث، من أهل البصرة، روت عن علي وعائشة (ت83 هـ /702م). ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي (ت 852 هـ /1448م)، تهذيب التهذيب، ط1، ج12، مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند 1908 ص452.

([2]) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج8، ص483.

([3]) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج8، ص393.

([4]) مالك بن دينار من التابعين سمع من أنس وحدّث عنه الأحنف وسعيد بن جبير (ت131 هـ /749م). ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج7، ص243.

([5]) الأصبهاني، إسماعيل بن محمد بن الفضل (ت535 هـ /1141م) سير السلف الصالحين، تحقيق كرم بن حلمي بن فرحات بن أحمد، دار الراية، الرياض د.ت ص933.

([6]) محمد بن واسع بن جابر الأزدي، فقيه ورع، من الزهاد، من أهل البصرة، عرض عليه قضاؤها فأبى، وهو من ثقات أهل الحديث (ت123 هـ /741م). ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج7، ص204.

([7]) ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج12، ص499.

([8]) عبد الواحد بن زيد أبو عبيدة البصري (ت150 هـ /767م) زاهد صوفي من البكّائين. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج9، ص509.

([9]) عتبة الغلام بن أبان البصري (ت177 هـ /793م). ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج6، ص226.

الحب أكثر فأكثر اعتماداً على قوله تعالى(يحبهم ويحبونه) [1]، ثم ظهر من هذه المدرسة رابعة العدوية[2] التي اشتهرت بالعبادة والنسك[3].

2- مدرسة الكوفة:

ظهرت الحياة الصوفية في الكوفة على يد عبد الله بن مسعود الذي أرسله عمر بن الخطاب إليها ليتولى قضاءها وبيت مالها، وعلى يد عبد الله تكونت طائفة من القرّاء في الكوفة كما تكونت طائفة القراء في البصرة، ومن هذه الطائفة خرج العباد والزهاد وكوّنوا مدرسة من أكبر مدارس الصوفية في العالم الإسلامي[4].

ومن أشهر أتباع هذه المدرسة مسروق بن عبد الرحمن الكوفي[5] المعروف براهب الكوفة، وأحد الزهاد الثمانية الأوائل من التابعين، وكان أهل الكوفة لا يقدّمون عليه أحد، لأنه كان يمثّل العبادة السنية المأثورة عن الصحابة ويعيش حياة الزهد، وكان يدعو الناس إلى الإخبات في الصلاة ويرى أن السجود هو طريق القرب إلى الله تعالى[6].

ومنهم الأسود بن يزيد[7] الذي اعتنق فكرة تعذيب الجسد فكان يجهد نفسه بالصوم والعبادة، حتى يخضر جسده ويصفر ثم فرض على نفسه صيام الدهر، وذهبت إحدى

([1]) سورة المائدة، آية 54.

([2]) رابعة بنت إسماعيل العدوية، مولاة آل عتيك البصرية صالحة مشهورة، من كلامها: (اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم) توفيت بالقدس سنة (135 هـ /752م). ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص285.

([3]) السلمي، محمد بن الحسين بن محمد (ت412 هـ /1021م) طبقات الصوفية، ط1، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت 1998 ص387.

([4]) النشار، نشأة الفكر، ج3، ص217.

([5]) عبد الرحمن بن عبد الرحمن الكوفي، سمي أبوه عبد الرحمن بعد أن كان اسمه الأجدع، حضر القادسية وجرح فيها (ت63 هـ /683م). الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج4، ص65.

([6]) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج6، ص76-84. ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (ت276 هـ /889م) المعارف، ط2، تحقيق: ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1992 ص432.

([7]) الأسود بن يزيد بن قيس النخعي تابعي، فقيه، من الحفاظ، كان عالم الكوفة في عصره (ت75هـ/694م). الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ج2، ص103.

عينيه من ذلك[1]، ومنهم علقمة بن قيس[2] أحب تلاميذ عبد الله بن مسعود إليه، وكان الناس يشبّهونه بالرسول من جهة وبعبد الله بن مسعود من جهة أخرى، وأطلقوا عليه زين القرآن[3]، ومنهم أيضاً الربيع بن خيثم[4] الذي كان معروفاً بالبكاء لأنه كان يبكي حتى تبتل لحيته من كثرة دموعه، ويبيت الليالي مجتهداً باكياً، وهو واضع فكرة قتل النفس التي سينادي بها الحلّاج في أسواق بغداد، كما وضع فكرة الصعق عندما كان يقرأ آيات الوعيد، وكذلك فكرة الصمت عندما اعتزل الفتنة بين معاوية وعلي رغم أنه كان محباً لعلي، وصار يحب إخفاء العبادة، ويعيش مقام الذل وبخاصة عندما كان يلاحظ تحكّم السفهاء من بني أمية[5]، ومنهم عبد الله بن سعيد بن أبجر المتطبب[6]، ومحمد بن بن سوقة[7]، ومضر بن طريف[8] وضرار بن عمرو[9] الذي حفر قبراً في بيته يتعبد فيه.

([1]) الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت748 هـ /1347م) تذكرة الحفاظ، ط1، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت 1998 ص41.

([2]) علقمة بن قيس بن عبد الله بن مالك فقيه الكوفة حدّث عن عمر وعثمان وعلي وغيرهم (ت72 هـ /691م). ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج6، ص86.

([3]) ابن قتيبة، المعارف، ص431.

([4]) الربيع بن خيثم الثوري الكوفي، إمام عابد روى عن عبد الله بن مسعود وأبي أيوب الأنصاري وهو قليل الرواية (ت65 هـ /685م). ابن قتيبة، المعارف، ص497.

([5]) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج4، ص258.

([6]) عبد الله بن سعيد بن أبجر إمام حافظ ثابت صدوق (ت257 هـ /871م). الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج2، ص182-185.

([7]) محمد بن سوقة الكوفي إمام عابد حجة، حدّث عن أنس بن مالك وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي (ت140 هـ /757م). الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج5، ص3-4.

([8]) مضر بن طريف الكوفي الحارثي حدّث عن الشعبي وأخذ عنه سفيان الثوري وأبو جعفر الرازي (ت141 هـ /758م). الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج6، ص127-128.

([9]) ضرار بن عمرو توفي زمن الرشيد وكان رأس المعتزلة. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج10، ص544.

ومن هذه المدرسة طائفة البكّائين الذين كانوا يجتمعون في خلواتهم للبكاء ومنهم قيس بن مسلم الجدلي[1]، ومحمد بن جحادة[2]، ومسعر بن كرام[3] الذي كان يرى الحرية في اليأس من الناس[4]، الناس[4]، ومنهم طائفة الوعّاظ الذين كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ومنهم كرز بن وبرة[5] الذي كان يعظ الناس ويصبر على أذاهم وضربوه أثناء وعظه حتى أغمي عليه[6].

أما أشهر أتباع هذه المدرسة فهو سفيان الثوري فقد أجمعت مصادر ترجمته على أنه كان عابد الأمة وعالمها، وكان يرى ضرورة الجمع بين الحديث والعبادة، ولذلك دعا إلى ترك الحديث للدنيا، كما دعا إلى ترك القرّاء والمحدّثين الذين كانوا يقبلون على الولاة والأمراء وينشدون الدنيا بالحديث والفقه، ثم ساح في البلاد ينشد العباد ويدعو إلى الزهد الذي أقامه على أسس ثلاث التقوى واليقين وسقوط المنزلة، وكان يرى أن أول الزهد هو ترك الرئاسة لصعوبتها على النفس ولذلك ترك الدنيا وطلب العباد في الكوفة ومكة والبصرة والبادية، واستمر مذهبه في تلاميذه عبد الله بن المبارك[7] ويوسف بن أسباط[8].

([1]) قيس بن مسلم الجدلي الكوفي روى عن طارق بن شهاب وأبي ليلى ومجاهد (ت120 هـ /738م). ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج6، ص217.

([2]) محمد بن جحادة الكوفي أخذ عن أنس بن مالك، حدّث عنه شعبة وسفيان بن عيينه (ت131 هـ /749م) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج6، ص233-234.

([3]) مسعر بن كرام بن ظهير الكوفي إمام حافظ ثبت (ت155 هـ /772م). الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ج7، ص206.

([4]) النشار، نشأة الفكر، ج3، ص236.

([5]) كرز بن وبرة الحارثي الكوفي حدّث عن أنس بن مالك والربيع بن خيثم وعن الدارمي كذلك. الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ج5، ص79.

([6]) النشار، نشأة الفكر، ج3، ص237.

([7]) عبد الله بن المبارك بن واضح المروزي شيخ الإسلام عابد تقي، لقي الربيع بن أنس وسمع من سليمان التميمي وعاصم الأحول (ت181 هـ /). ابن قتيبة، المعارف، ص511.

([8]) يوسف بن أسباط الشيباني الزاهد الواعظ، وثقة يحيى بن معين، كان قد دفن كتبه، فكان لا يجيء بحديثه كما ينبغي. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت748 هـ /1347م) ميزان الاعتدال في نقد الرجال، ج4، تحقيق علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت 1963 ص462. النشار، نشأة الفكر، ج3، ص389.

أما داود بن نصير الطائي[1] فقد اعتبر من أوائل الزهاد الرسميين في العالم الإسلامي، بدأ بطلب الحديث والفقه في مجلس أبي حنيفة، وبعد أن أتمّ ذلك قال له أبو حنيفة: " أما الإدارة فقد أحكمناها وبقي العمل، واستمر داود في مجلس أبي حنيفة عاماً لا يتكلم وهو أشد شوقاً إلى الكلام من العطشان إلى الماء البارد، وقد فعل ذلك زاهداً فيه، ثم ألزم نفسه البيت وبدأ بالعبادة، وقطع علاقته بالناس وبدأ ثورته على الفقه، لأنه رأى أن التعلم وحده ليس طريق النجاة، ثم أعلن فكرة الفرار من الدنيا دون ترك للجماعة وهو واضع اصطلاح المريد والزاهد بقوله: " من علامات المريدين والزاهدين في الدنيا ترك كل جليس لا يريد ما يريدون"[2].

3- مدرسة الشام:

وتنسب هذه المدرسة إلى الصحابي الجليل أبي الدرداء[3] والذي كان من كبار الأغنياء قبل إسلامه، وعندما أسلم وسمع قوله تعالى : (رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ) اعتزل التجارة وتفرّغ للعبادة وصار من خاصة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن كبار قرّاء المدينة، ولمّا فتح المسلمون بلاد الشام أرسله عمر بن الخطاب

([1]) داود بن نصير الطائي الكوفي الزاهد، وكان أحد من برع في الفقيه ثم اعتزل، روى عن عبد الملك بن عمير وجماعة، وكان عديم النظير زهداً وصلاحاً. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت748 هـ /1347م) العبر في خبر من غبر، ط1، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت 1985 ص183.

([2]) الشعراني، عبد الوهاب بن أحمد (ت 973 هـ /1565م)، الطبقات الكبرى (لوافح الأنوار في طبقات الأخيار)، ج1، مكتبة محمد المليجي الكتبي وأخيه، مصر 1897 ص65.

([3]) عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الأنصاري الخزرجي، صحابي من الحكماء الفرسان القضاة، وهو أحد الذين جمعوا القرآن حفظاً، على عهد النبي صلى الله عليه وسلم بلا خلاف، وروى عنه أهل الحديث 179 حديثاً مات بالشام سنة (32 هـ /652م). ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج7، ص391.

قاضياً على دمشق، وهناك لاظ اهتمام الناس بالثراء والأموال، فقام ينبّه الناس إلى خطر ذلك على حياتهم الأخلاقية والروحية، وجلس في المسجد يعظ الناس فأحبه كثير والتفوا حوله، وكان يدعو إلى الابتعاد عن الشبع والاهتمام بالجوع لشعوره بخطر الشبع على المسلمين، ومن أقواله في ذلك: " وإني أخاف عليكم شهوة خفية في نعمة ملهية وذلك حين تشبعون من الطعام وتجوعون من العلم"، واستمر يدعو إلى ذلك ويؤكد عليه حتى تأثر به تلامذته وكونوا من بعده مدرسة خاصة عرفت بالمدرسة الجوعية[1].

وممن ساهم في هذه المدرسة أيضاً كعب الأحبار الذي كان يهودياً ثم أسلم، وروى عن عمر وصهيب وعائشة وعثمان، ثم خرج إلى بلاد الشام وزار بيت المقدس ثم سكن حمص حتى وفاته سنة 32 هـ /652م[2]، ثم اتسعت هذه المدرسة على يد حيلان بن فروة وشهر بن حوشب[3] ومغيث بن سمي، كما استجاب للمدرسة الجوعية بالشام مجموعة من التابعين أمثال عمرو السكوني[4]، ويزيد بن أسود[5] وشرحبيل بن السمط[6] الذي لجأ إلى العزلة خوفاً على دينه من الضياع[7].

([1]) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج2، ص335. النشار، نشأة الفكر، ج3، ص290.

([2]) الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج1، ص42.

([3]) شهر بن حوشب الأشعري فقيه قارئ من رجال الحديث شامي الأصل، سكن العراق، وكان يتزيا بزي الجند (ت100 هـ /718م). ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج7، ص449. ابن قتيبة، المعارف، ص448.

([4]) عمرو بن قيس السكوني الكندي، تابعي ثقة، كان سيد أهل حمص. وفد على معاوية، ثم انقطع للفقه في مسجد حمص، إلى أن كانت الثورة على مروان بن محمد (ت140 هـ /757م). الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ج5، ص155.

([5]) يزيد بن الأسود الجرشي أسلم في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، نزل بدمشق ونزل بقرية زيد قرب دمشق. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج7، ص444. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج4، ص136-137.

([6]) شرحبيل بن السمط بن الأسود الكندي، من الشجعان القادة، له صحبة، شهد القادسية، وافتتح حمص، وقاتل في الردة، وشهد صفين مع معاوية، وولي حمص نحوا من عشرين سنة (ت40 هـ /660م). ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج1، ص415.

([7]) النشار، نشأة الفكر، ج3، ص296.

ثم تطورت مدرسة الشام على يد أبي مسلم الخولاني أحد التابعين الثمانية الذين انتهى إليهم الزهد، واستطاع الخولاني أن يبرز الطريق الصوفي ونظرية الجوع والمعرفة وفكرة المقامات وخاصة مقام الحب، كما برزت له آراء في الأحوال وهو الذي جاهر برفع الصوت في الذكر فكان يقول: " اذكروا الله حتى يراكم الجاهل أنكم مجانين"، ثم صار يعذّب نفسه وجسده وأعدّ لذلك سوطاً في مسجده يسوط به نفسه عندما يفتر عن العبادة ويقول: " أنا أولى بالسوط من الدواب"، ثم اعتزل الناس وصار يتكلّم في المحبة، وصارت آراؤه مثلاً لعبّاد الشام[1]، ويتتابع التطور لمدرسة الشام مع أبي سليمان الداراني[2] الذي أتى بأفكار عديدة خدمت التصوف من مثل حياة التأمل والجوع والمعرفة والمقامات والأحوال واستطاع بهذه الأركان الأربعة أن يكوّن المذهب الصوفي الكامل في بلاد الشام بعد أن كان لمحات متناثرة في الجوع والعبادة والقراءة، وقد استفاد من أتى بعده من هذه الأفكار أمثال الشبلي[3] والمحاسبي[4].

([1]) ابن عساكر، أحمد بن محمد بن هبة الله(ت610 هـ/1213م) تاريخ دمشق ، ط1، ج27، تحقيق محب الدين العمروي، دار الفكر، بيروت 1996 ص205. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج5، ص294؛ سير أعلام النبلاء، ج4، ص9. النشار، نشأة الفكر، ج3، ص307.

([2]) عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العنسي المذحجي، زاهد مشهور، من أهل داريا (بغوطة دمشق) رحل إلى بغداد، وأقام بها مدة، ثم عاد إلى الشام، وتوفي في بلده سنة (215 هـ /830م). الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ج9، ص254-280. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص131.

([3]) دلف بن جحدر الشبلي، ناسك كان في مبدأ أمره والياً في دنباوند (من نواحي رستاق الري) وولي الحجابة للموفق العباسي، وكان أبوه حاجب الحجاب، ثم ترك الولاية وعكف على العبادة، فاشتهر بالصلاح، سلك به مسالك المتصوفة (ت334 هـ /946م). السلمي، طبقات الصوفية، ص337-348.

([4]) جلال شرف، دراسات في التصوف، ص191.

وفي رحاب مدرسة الشام نشأت مدرسة الثغور في المدن القائمة على الحدود مع العدو والتي كان يرابط فيها المجاهدون لصد هجمات العدو، وبخاصة الثغور الشامية حيث كان العدو البيزنطي وكان معظم هؤلاء المرابطين من الفقهاء والمحدّثين مثل أبي اسحق الفزاري[1] بثغر طرسوس الذي كان معروفاً بالحديث وعنه أخذ سفيان الثوري والأوزاعي ومحمد بن يوسف الأصفهاني[2].

ومن أهل الثغور عيسى بن يوسف بن اسحق السبيعي الهمذاني[3] المحدّث الذي أثنى عليه أحمد بن حنبل، ومنهم علي بن بكّار الفقيه البصري[4] الذي سكن المصيصة[5] وصحبه الفزاري وابن الأدهم[6]، ومن أهل الثغور حذيفة بن قتادة المرعشي الذي تخرّج على يديه مؤسسوا مدرسة أنطاكية، يوسف بن أسباط وعبد الله بن حبيق[7] وقد قامت هذه المدرسة بالمزج بين التصوف

([1]) إبراهيم بن محمد بن الحارث الفزاري ثقة مأمون شيخ صوفي (ت185 هـ /801م). الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج8، ص539.

([2]) أبو جعفر محمد بن اسماعيل الأصفهاني سمع من أبي علي الحدّاد ومحمد بن عبد الواحد الدقّاق. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج21، ص245-246.

([3]) عيسى بن يوسف بن اسحق السبيعي الهمذاني (ت287 هـ /900م). الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ج4، ص240.

([4]) علي بن بكّار شيخ صوفي حدّث عن ابن عون وهشام بن حسان، وروى عنه السري الفيض بن اسحق (207 هـ /822م). الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج9، ص584-585.

([5]) مدينة على شاطئ جيحان من ثغور الشام، بين أنطاكية وبلاد الروم، كانت من الأماكن التي يرابط بها المسلمون قديماً. الحموي. معجم البلدان، ج5، ص144-145. ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج3، ص1280.

([6]) إبراهيم بن أدهم بن منصور، التميمي البلخي زاهد مشهور. كان أبوه من أهل الغنى في بلخ، فتفقه ورحل إلى بغداد، وجال في العراق والشام والحجاز، أخباره كثيرة وفيها اضطراب واختلاف في نسبته ومسكنه ومتوفاه، ولعل الراجح أنه مات ودفن في سوفنن (حصن من بلاد الروم) سنة (ت161 هـ /778م). الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج7، ص387.

([7]) عبد الله بن حبيق درس على يونس بن أسباط، سكن أنطاكيا وكان زاهداً بعيداً عن الشبهات. الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ج10، ص176.

والفلسفة واستخدمت المصطلحات الفلسفية مثل الجوهر والحكماء ومعرفة النفس والـذوق وأشـكال العقل والحواس وغيرها.

ومنهم مسلم بن ميمون الخواص[1] الذي ظهرت على يديه فكرة معراج النفس إلـى الرسـول صلى الله عليه وسلم ثم إلى جبريل ثم إلى الله سبحانه وتعالى، ويتضح هذا أكثر عند صوفية القرنين الثالث والرابع الهجريين/التاسع والعاشر الميلاديين ومنهم أبو عبيدة الخواص الساحلي[2] الذي كـان في مدينة صور الذي ساهم في النهي عن سؤال الفقهاء على طريقة الثوري وداود الطائي، لأنه كان يعتبر الفقهاء حيارى لا دليل لديهم إلى الله، وكان يعتبر الطريق الصحيح هو طريق الزهاد، وجوهر هذا الطريق كما يقول : " الحزن جلاء القلوب به لبستم مواضع الفكر"، وهذا من الدلائل التي تشـير إلى النزاع الذي كان قائماً بين الزهاد والفقهاء، ويتنبّه إلى خطره بعـض صـوفية القـرن الثالـث الهجري/ التاسع الميلادي الذين سيقومون بمحاولة الجمع بين الفقه والتصوف[3].

وممن ساهم في تطوير الزهد إلـى التصـوف فـي هـذه المدرسـة أيضـاً أبـو عبـد الله الصوري محمد بن المبارك[4] صاحب علم طريق الآخرة، والـذي يعتبـره هـو وأصـحابه مـن من بعده طريق الرسول عليه الصلاة والسلام، وبيّن حـدوده لأهـل الإيمـان بدايـةً مـن الـدنيا وانتهاءً بالآخرة[5]، ونذكر أيضاً سعيد بن زيد أبو عبـد الله النبـاحي او السـاجي[6] الـذي كـان

([1]) مسلم بن ميمون الخواص من شيوخ الصوفية وفلاسفتهم. السلمي، طبقات الصوفية، ص144.

([2]) أبو عبيدة الخواص فارسي الأصل سكن فلسطين في أرسوف وصور ولذلك سمي الساحلي. الأصبهاني، حليـة الأولياء وطبقات الأصفياء ج8، ص281-282.

([3]) النشار، نشأة الفكر، ج3، ص53.

([4]) محمد بن المبارك بن يعلى القرشي الصوري، سمع سعيد بن عبد العزيز ومالك بن أنس، وحدّث عن يحيى بـن معين ومحمد بن عوف الدارمي. الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج1، ص310.

([5]) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج21، ص390-391.

([6]) سعيد بن زيد النباحي الصوفي صاحب المواعظ حكى عنه أحمد بن أبي الحـوراني، وقيـل أن لـه كرامـات. الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ج9، ص311-317.

بثغر طرسوس وتتلمذ على يد أهل الشام وبغداد، وكان يستخدم الآيـــات القرآنيـــة كمواقـــف صوفية وهو بهذا أول من فتح الباب لمن بعده للدخول في التصوف الخالص[1].

4- مدرسة الموصل:

لا شك أن أهل الموصل قد اتصلوا بالبصرة والكوفة أول الأمر، وأخذوا عن سفيان الثوري، كما أنهم اتصلوا بمدرسة الشام، وأخذوا عن الداراني وابن أبي الحواري، كما اتصلوا بمدرسة بغـــداد بعد قيامها، وأخذوا عن بشر الحافي وغيره، وكان من أول زهاد الموصل المعافى بـــن عمـــران[2] الفقيه المحدّث الذي روى عنه ابن المبارك محدّث خراسان، وكان المعافى يمثّل الثوري تمام التمثيل كما ظهرت على يديه فكرة الأقطاب السبعة[3].

ومن زهاد الموصل أبو نصر فتح بن سعيد الموصلي[4] الذي سلك نفس مسار عباد المســـلمين مـــن الجوع والعري والصبر والرضا والحب الإلهي، وكان يُكثر من الدموع حتى تدمع عيناه بالدماء[5].

([1]) النشار، نشأة الفكر، ج3، ص359.

([2]) المعافي بن عمران الأزدي الموصلي، شيخ الجزيرة في عصره، وأحد الثقات من حفاظ الحديث، صنف كتباً في السنن والزهد والأدب والفتن وغير ذلك (ت185 هـــ /801م). الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج9، ص86. ابـــن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج10، ص200.

([3]) النشار، نشأة الفكر، ج3، ص367. الأقطاب السبعة : القطب رحل واحد موضع نظر الله تعالى كل زمان يلجـــأ الملهوف إليه خلق على قلب محمد صلى الله عليه وسلم. حنفي، عبد المنعم، معجم مصطلحات الصـــوفية، ط1، دار المسيرة، بيروت 1980 ص218.

([4]) أبو نصر فتح بن سعيد الموصلي شيخاً صوفياً ورعاً (ت هـــ 220 هـــ /835م). الذهبي، سير أعلام النـــبلاء، ج7، ص350.

([5]) الشعراني، الطبقات الكبرى، ج1، ص68.

5- مدرسة خراسان:

إلى الشرق من إيران حيث خراسان في الشمال الشرقي امتد التأثير الروحي على يد عدد من رجال الحديث أمثال محمد بن يوسف بن معدان الأصفهاني[1] الذي كان يسميه عبد الله بن المبارك ب " عروس الزهاد"، وتأثر به زهاد خراسان وبخاصة عبد الله بن المبارك والفضيل بن عياض وإبراهيم بن الأدهم، وشكّل كل منهم مدرسة خاصة.

أما مدرسة عبد الله بن المبارك فقد اعتمدت على أصول ثمانية هي العزلة ثم الوحدة ثم عدم الشهوة ثم البكاء ثم الخوف ثم الاستعداد للموت، ثم الامتناع عن النوم ثم صيام الدهر، أما الفضيل فقد شكّل مدرسة أخرى بدأت بالحزن ثم التوبة وقام بإبراز مفهوم التوبة والزهد المذهب الصوفي، وتكلم في الفتوة واعتبرها الصفح عن عثرات الإخوان، وامتدت مدرسته في ولده علي[2]، وتلاميذه إبراهيم بن الأشعث[3] وعبد الله بن يزيد مردويه[4] وقادم الديلي[5] وإبراهيم بن شماس

([1]) محمد بن يوسف بن معدان الأصبهاني عابد صوفي روى حديثاً واحداً منكراً، روى عن يونس بن عبيد والأعمش (ت184 هـ /800م). الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ج8، ص225-237.

([2]) علي بن الفضيل بن عياض كان الفضل يُكنى به ويوجهه ويرشده ويتتبّع أخباره، وكان من كبار العلماء، قتلته المحبة. الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ج8، ص297-300.

([3]) إبراهيم بن الأشعث أحد تلاميذ الفضيل وخادمه، صحبه وأخذ عنه. النشار، نشأة الفكر، ج3، ص405-406. محمود، عبد الحليم، الفضيل بن عياض، ص90.

([4]) عبد الله بن يزيد بن مردويه أحد تلاميذ الفضيل بن عياض (ت236 هـ /851م). النشار، نشأة الفكر، ج3، ص405-406.

([5]) قادم الديلي صحب الفضيل بن عياض وسار على طريقته في الخشوع. الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ج10، ص136-137.

السمرقندي[1]، وكان لهذه المدرسة أثر كبير في تحوّل الزهد إلى التصوّف في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي.

مدرسة بلخ:

وأيضاً امتد الأثر الروحي إلى بلخ حيث كان إبراهيم بن الأدهم الذي كان والده من الأتقياء الأغنياء في بلخ[2] والمحبين للزهاد، وعندما رُزق بإبراهيم في مكة حمله إلى الزهاد يطلب له منهم الدعاء حتى استيقن أن الله قد استجاب لهم، وكانت تقوم مدرسة ابن الأدهم على أصول ستة هي : الكسب الحلال ثم القلق ثم كثرة التفكير، ثم جهاد النفس الذي لا بد له من اجتياز عقبات ستة هي: إغلاق أبواب النعمة والعز والراحة والنوم والغنى والأمل، ليحل محلها صفات ست هي: الشدة والذل والجهد والسهر والفقر والاستعداد للموت، ثم يأتي الأصل الخامس وهو جهاد القلب الذي لا بد له من التخلص من أغطية ثلاثة هي: الفرح بالموجود، والحزن على المفقود، والسرور بالمدح، ثم يأتي بعد ذلك الأصل السادس وهو الرضا، واتخذ إبراهيم بن الأدهم الرضا لنفسه لباساً وعاش حياته بين الرضا والإيثار والحب، وكان الحب تاجها، وعنه أخذ كثيرون وبخاصة إبراهيم بن بشار الخراساني[3]، وأبو اسحق الهروي[4] الذي طوّر مذهب أستاذه، وكان من أوائل من تكلّموا في

([1]) النشار، نشأة الفكر، ج3، ص405-406. محمود، عبد الحليم، الفضيل بن عياض، ص90. إبراهيم بن شماس السمرقندي سكن بغداد وعُرف بكثرة التعبد. ابن الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد وذيوله، ج6، ص99.

([2]) بلخ مدينة مشهورة بخراسان من أجلها وأشهرها ذكرا وأكثرها خيراً، وبينها وبين ترمذ اثنا عشر فرسخاً، ويقال لجيحون نهر بلخ. الحموي، معجم البلدان، ج1، ص479.

([3]) إبراهيم بن بشار الخراساني حدّث عن ابن عيينة وأبي معاوية وغيرهما، وحدّث عنه أبو داود في سننه (ت227ه/841م). الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج10، ص510-511.

([4]) أبو اسحق الهروي سمع إسماعيل بن جعفر وعبد الرحمن بن أبي الزناد وغيرهما، وحدّث عنه الترمذي وابن ماجه وغيرهما (ت244 هـ /859م). ابن الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد وذيوله، ج6، ص118.

التوكّل، كما أخذ عن إبراهيم بن مخلد بن الحسن، وعلي بن بكّار وأبو يوسف الغسولي[1]، وأبو اسحق الفزاري الذين مرّ ذكرهم سابقاً.

إن المدارس الآنفة الذكر كانت قد أسهمت بشكل كبير في إرساء قواعد التصوف وتطوّرها.

وفي القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي قام التلاميذ الذين أخذوا عن العلماء السابقين يعلّمون الناس المبادئ التي أخذوها، والتفّ الأتباع والمريدون على شكل مدارس فرعية تقوم كل مدرسة بنشر المبادئ والأسس التي تؤمن بها لوصول الصوفي إلى المعرفة أو الحقيقة التي سعى إليها، وأهم هذه المدارس:

أ. **المحاسبية:** نسبةً إلى أبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي[2]، وكانت تهتم بمحاسبة النفس، ومحاربة بدع الزهّاد والعبّاد المخالفين للسنة، أدعياء التصوف الذين أسقطوا التكاليف وادّعوا علم الغيب[3].

ب. **القصارية:** نسبةً إلى أبي صالح حمدون بن أحمد بن عمارة القصار [4]، وكانت تهتم بإظهار ونشر الملامة، لأن القصار كان يعتبر الآفة الكبرى على الإنسان في إعجابه بنفسه واهتمامه برضى الخلق ومدحهم، وهذا هو الذي يؤخر السالك عن الوصول، وكان يرى علاج ذلك في

([1]) أبو يوسف الغسولي من أصحاب إبراهيم بن الأدهم، كان عابداً من عبّاد الثغور وملتزماُ بها ويغزو نها، كان تقياً ورعاً، ذكره أحمد بن حنبل وأثنى عليه (ت240 هـ /855م). السلمي، طبقات الصوفية، ص29.

([2]) الحارث بن أسد المحاسبي، من أكابر الصوفية، كان عالماً بالأصول والمعاملات، واعظاً مبكياً، وله تصانيف في الزهد والرد على المعتزلة وغيرهم، ولد ونشأ بالبصرة، ومات ببغداد سنة (ت243 هـ /857م)، وهو أستاذ أكثر البغداديين في عصره، من كتبه (آداب النفوس) و (شرح المعرفة) و (المسائل في أعمال القلوب والجوارح)

([3]) غني، قاسم، تاريخ التصوف الإسلامي، ترجمة صادق نشأت، ص522-545.

([4]) حمدون بن أحمد بن عمارة القصار النيسابوري، صوفي، كان شيخ أهل الملامة بنيسابور ومنه انتشر مذهب الملامة، وكان عالماً فقيهاً يذهب مذهب الثوري، وله طريقة اختص بها، من كلامه (من استطاع منكم أن لا يعمى عن نقصان نفسه فليفعل) (ت271 هـ /884م). الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ج10، ص231-232.

اتخاذ طريق الملامة التي تقوم على حصر المراد في الحق لا في الخلق، ومثل هذا الطريق لا بد له من ترك السلامة وقبول البلاء وتعريض النفس للمحن، وتأديبها بالتحقير والإهانة من الخلق، ومن أقوال القصّار في ذلك : " ينبغي أن يكون علم الله بالنسبة إليك أحسن من علم الخلق بك، أي يجب أن تعامل الله تعالى في الخفاء أكثر من معاملتك للخلق في الملأ، لأن الحجاب الأعظم عن الحق هو انشغال قلبك بالخلق"[1].

ج. **الطيفورية:** أتباع أبي يزيد طيفور بن عيسى البسطامي[2]، وتقوم طريقتهم على السّكر، ومعناه عندهم أن الصحو يتحقق بتمكين صفة الإنسانية واعتدالها وهو الحجاب الأعظم عن الحق تعالى، ويتحقّق السكر بزوال الآفة ونقص الصفات البشرية وذهاب تدبيره واختياره واضمحلال تصرفه في نفسه ببقاء طاقة متمكنة في ذاته خلافاً لجنسه وذلك أبلغ وأتم[3].

د. **الجنيدية:** أتباع أبي **القاسم** الجنيد بن محمد[4]الذين حملوا لواء الجمع بين الشريعة والقانون، أو التوفيق بين الفقه والتصوف، وأقاموا طريقتهم على مراقبة الباطن وتصفية القلب، وتزكية النفس والتخلق بالأخلاق الحميدة، ومن أقوال الجنيد: " الطريق إلى الله مسدود على خلق الله عز وجل إلا على المقتفين آثار رسول الله والتابعين للسنة"، كما قال تعالى: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ

([1]) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج13، ص50-51.

([2]) طيفور بن عيسى البسطامي، زاهد مشهور، له أخبار كثيرة، كان ابن عربي يسميه أبا يزيد الأكبر، نسبته إلى بسطام (بلدة بين خراسان والعراق) أصله منها، ووفاته فيها سنة (ت261 هـ /875م). ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص531.

([3]) الشعراني، الطبقات الكبرى، ج1، ص68.

([4]) الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز، صوفي، من العلماء بالدين، مولده ومنشأه ووفاته ببغداد، أصل أبيه من نهاوند، وكان يعرف بالقواريري نسبة لعمل القوارير، وهو أول من تكلم في علم التوحيد ببغداد (ت279 هـ /910م).). الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ج10، ص255.

أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) [1]، ومن أقوال الجنيد أيضاً: " من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يُقتدى به هذا الأمر – التصوف– لأن علمنا هذا مقيّد بالكتاب والسنة[2].

ه. **النورية :** أتباع أبي الحسين أحمد بن محمد النوري[3] وكان يفضّل التصوف على الفقر ويذم العزلة والانزواء، ويرشد أتباعه إلى العشرة والصحبة، بالإضافة إلى أن معاملاته كانت تتطابق مع مذهب الجنيد، وأتباع هذه الطريقة يهتمون اهتماماً بالغاً بالإيثار اعتماداً على قوله تعالى : **(وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)** [4].

و. **السهيلية:** أتباع عبد الله التستري[5] وقامت هذه الطريقة على مخالفة النفس وترويضها بالمجاهدة، لأنه كان يرى أن النفس هي ينبوع الشر ومنشأ الأخلاق والأفعال الذميمة والباعثة على المعاصي والخصال الرديئة كالكبر والحسد والبخل والحقد والغضب والطمع والأنانية وغير ذلك، والنفس هي الحجاب الأكبر بين الإنسان والحق لذا وجب مخالفتها[6].

([1]) سورة الأحزاب، آية 21.

([2]) السلمي، طبقات الصوفية، ص129–130.

([3]) أحمد بن محمد الخراساني البغوي، الزاهد، شيخ الطائفة بالعراق، وأحذقهم بلطائف الحقائق، وله عبارات دقيقة يتعلق بها من انحرف من الصوفية (ت295 هـ /908م). ابن الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد وذيوله، ج5، ص342

([4]) سورة الحشر، آية 9. السلمي، طبقات الصوفية، ص136.

([5]) سهل بن عبد الله بن يونس التستري، أحد أئمة الصوفية وعلمائهم والمتكلمين في علوم الإخلاص والرياضيات وعيوب الأفعال، له كتاب في (تفسير القرآن)، وكتاب (رقائق المحبين) وغير ذلك (ت283 هـ /896م). الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج13، ص330–333.

([6]) الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ج10، ص189–212.

ز. **الحكيمية:** أتباع أبي عبد الله محمد بن الحكيم الترمذي[1] الذي وضع أساس الطريقة وقاعدتها على الولاية، فكانت أبحاثه ترمي إلى حقيقة الولاية ودرجات الأولياء ومراعاة ترتيبها واصطفاء الأولياء من جانب الله تعالى.

ح. **الخرّازية:** أتباع أبي سعيد الخرّاز[2] الذي بنى طريقته على موضوع البقاء والفناء، والمقصود بالبقاء قيام الأوصاف المحمودة به، والفناء سقوط الأوصاف المذمومة[3].

ط. **الخفيفية:** أتباع أبي عبد الله محمد بن الخفيف[4] الذي أقام مذهبه على الغيبة والحضور، بمعنى بمعنى حضور القلب بدلالة اليقين حتى يصبح حكمه الغيبي حكماً عينياً[5].

ي. **السيارية:** أتباع أبي العباس السياري[6].

ك. **الفارسية:** أتباع فارس الدينوري[7]، من أهالي خراسان الذي اجتمع بعد مقتل الحسين بن منصور الحلّاج بجماعة من تلاميذه حول فارس، وكان متهماً بالحلول والامتزاج وتناسخ الأرواح[8].

([1]) محمد بن أحمد بن نصر الترمذي سمع يحيى بن بكير ويوسف بن عدي (ت295 هـ /908م). الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج13، ص545-547.

([2]) أحمد بن عيسى الخراز، من مشايخ الصوفية، نسبته إلى خرز الجلود، قيل إنه أول من تكلم في علم الفناء والبقاء، له تصانيف منها (كتاب الصدق، أو الطريق الى الله).

([3]) السلمي، طبقات الصوفية، ص183.

([4]) أبو عبد الله محمد بن الخفيف الفارسي (ت371 هـ /982م) شيخ الصوفية حدّث عن حمّاد والتمّار وحدّث عنه الخزاعي والحسن الأندلسي. الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ج10، ص385-389.

([5]) القشيري، الرسالة القشيرية، ص29.

([6]) أبو العباس السياري القاسم بن القاسم المروزي (ت342 هـ /953م) سمع أبا الموجه وأحمد بن عباد وروى عنه عبد الله أحمد بن علي والحاكم. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج15، ص500-501.

([7]) أبو الحسن علي بن محمد الدينوري اللبان (ت414 هـ /1023م). الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج17، ص226.

([8]) الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ج13، ص383.

وإن الأحداث التي جرت في القرون الخامس والسادس والسابع للهجرة/ الحادي عشر والثاني عشر والثالث للميلاد كالغزو الفرنجي الذي بدأ منذ أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي واستمر في القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث الميلاديين واحتلالهم لأجزاء من بلاد الشام، وكذلك الغزو المغولي وانتشار الأوبئة والأمراض والفقر والمجاعات ويضاف لذلك الإحساس بالضياع للعرب تحت وطأة الغزاة، أدت لردة فعل معاكسة لدى المسلمين إذ انصرف الناس عن شؤون حياتهم وأصابهم اليأس والخنوع وصار الزهد نوعاً من اللامبالاة[1].

ومن المعروف أن نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي ، عرف عنهما الميل إلى الصوفية فبنوا لهم الربط والخوانق والزوايا في جميع بلاد الشام إضافةً إلى المساجد والمدارس ودور الحديث والبيمارستانات، هادفين من وراء ذلك تشجيع التصوف السني والقضاء على المذهب الشيعي في بلاد الشام والنهوض بالشعور الديني لدى المسلمين ورفع استعدادات الأمة الإسلامية لمواجهة الأخطار المحدقة بها، ويضاف لذلك إعادة الطابع الإسلامي والقضاء على ما تركه الفرنج في المنطقة من آثار[2].

وعندما جاء المماليك استمروا على نهج الأيوبيين فبنوا المؤسسات الدينية والعلمية التي سبق وأقامها الزنكيون والأيوبيون وتباروا في تقديم الأموال والهدايا للصوفية وأوقفوا على المؤسسات الصوفية الأوقاف، فنجم عن ذلك كثرة المتصوفة والمنتمين لها.

([1]) الأدفوي، الموفي بمعرفة التصوف، ص5-7.

([2]) الأدفوي، الموفي بمعرفة التصوف، ص6.

فالسلطان الظاهر بيبرس بنى عدداً من الزوايا للشيخ خضر، وهذا كان على علاقة وثيقة مع الظاهر بيبرس سنوضحها عند الحديث عن علاقة الصوفية بالسلطة الحاكمة، فقد بنى له زاوية في القدس وزاوية بجبل المزة[1] بدمشق، وزاوية ببعلبك وزاوية بحماة وأخرى بحمص[2].

وإذا علمنا أن زوايا الصوفية ألحق بها حمامات ومطابخ ومدافن ومدت أرضيتها بالفرش وآلات النحاس والقناديل وغيرها من الأدوات النفيسة التي لا يقتنيها إلا الملوك والأمراء[3]، أدركنا مدى الدعم الذي حظي به الصوفية، ولكننا نجد الكثير من المدعين المتظاهرين بالتصوف، فنتيجة لسوء الأحوال المعيشية كثر ادعاء التصوف، فلبسوا الصوف والمرقعات وحلقوا الرؤوس تشبهاً ولكنهم لم يتخلقوا بأخلاق القوم[4]، فقيل ذماً لهؤلاء المتشبهة "أكلة بطلة سطلة لا شغل ولا مشغلة[5]، وقيل أيضاً " رجل يظهر الإسلام ويبطن فاسد العقيدة في نهاية الإقدام وفي رجله جمجم وعذبته من قدام ويكون غالباً من بلاد الأعجام" [6].

فهؤلاء القوم كما يقول السبكي :(اتخذوا الخوانق ذريعة للباس الزور وأكل الحشيش والانهماك على حطام الدنيا، لا سترهم الله وفضحهم على رؤوس الأشهاد...) [7]، وحتى نكون منصفين نشير إلى أن السبكي ليس له أي موقف تجاه الصوفية، بل يمدحهم في أحد المواضع قائلاً:(حياهم الله وبياهم وجمعنا في الجنة نحن وإياهم) [8] ، وإنما قصد بكلامه تلك الفئة المتكسبة من الخوانق.

([1]) المزة قرية كبيرة وسط بساتين دمشق، بينها وبين دمشق نصف فرسخ. الحموي. معجم البلدان، ج5، ص122. القزويني، زكريا بن محمد محمود(ت 682هـ/1283م) آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت (د.ت) ص263. ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج3، ص1266.

([2]) الكتبي، فوات الوفيات، ج1، ص405.

([3]) الأدفوي، الموفي بمعرفة التصوف، ص6.

([4]) السبكي، تاج الدين عبد الوهاب(ت771 هـ /1369م) معيد النعم ومبيد النقم، ط1، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت 1986 ص97. سلام، محمد زغلول، الأدب في العصر المملوكي، ج1، دار المعارف الإسكندرية 1994، ص263.

([5]) السبكي، معيد النعم، ص125.

([6]) الأدفوي، الموفي بمعرفة التصوف، ص6.

([7]) السبكي، معيد النعم، ص125.

([8]) السبكي، معيد النعم، ص93.

الفصل الثاني

شيوع التصوف في مصر في العصر المملوكي

المبحث الأول: تغلغل التصوف في المجتمع المصري في العصر المملوكي

لا بد في البداية من الإشارة إلى الشيخ والمريد كعناصر هامة جداً في مفردات التصوف، يقول السهروردي في عوارف المعارف: (الخادم يدخل في الخدمة راغباً في الثواب، وفيما أعد الله تعالى للعباد ويتصدى لإيصال الراحة ويفرغ خاطر المقبلين على الله تعالى من مهام معاشهم) [1]. كما وجد المريد وهو سالك الطريق الصوفي الذي يسير في الطريقة حسب إرشادات شيخه، فيسلك طريقه كما يرسمه له شيخه حتى يصل إلى غايته[2]، ويرتبط المريد بشيخه ويخلع عليه خرقة التصوف[3] وعن سبب لبس الخرقة يشير الفقيه الهجويري[4]، بأن مشايخ الطرق الصوفية أمروا المريدين بأن يتحلوا بالمرقعات ويتزينوا بها، لتكون لهم علامة بين الخلق، ويكون الخلق رقباء عليهم، فإن أخطؤوا فإن الخلق يلومونهم وإن هموا بمعصية فلا يستطيعون النجاة من الخلق[5].

([1]) السهروردي، عوارف المعارف، ص91.

([2]) القاشاني، الشيخ عبد الرزاق (ت730 هـ /1329م)، اصطلاحات الصوفية، تصحيح عاصم الكيلاني، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 2005، ص1870–1890 . تركي، إبراهيم محمد، التصوف الإسلامي، أصوله وتطوره دار الكتب القانونية، القاهرة 2009، ص237 .

([3]) خرقة التصوف هو ما يلبسه المريد من يد شيخه الذي يدخل في إرادته ويتوب على يده لأمور منها التزيي بزي المراد، يلتبس بصفاته كما يلبس ظاهره بلباسه. القاشاني، اصطلاحات الصوفية، ص25.

([4]) علي بن عثمان بن أبي علي الجلابي الهجويري الغزنوي اللاهوري، وينسب إلى هجوير من بلاد الأفغان، كان من الرجال المعروفين بالعلم والمعرفة ، ساح معظم أرجاء المعمورة وحج وزار صنف كتاب " كشف المحجوب " في التصوف، توفي سنة (ت465 هـ /1072م) الشريف عبد الحي، عبد الحي بن فخر الدين الحسني (1341 هـ /1923م)، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، ط1، ج1، دار ابن حزم، بيروت 1999 ص69 .

([5]) الهجويري، أبو الحسن علي بن عثمان (ت465 هـ /1072م) كشف المحجوب، تقديم إسعاد قنديل، دار النهضة العربية، بيروت 1980، ص245 .

ونشير هنا إلى أن خرقة التصوف كانت تتألف من مزق[1] مرقعة وكانت ذات لـــون أزرق[2]، وقال السهروردي:(ففي الخرقة معنى المبايعة، والخرقة عتبة الدخول إلى الصحبة.....وبالصـــحبة يرجى للمريد كل خير، فإذا دخل المريد تحت حكم الشيخ وصحبه يسري من باطن الشيخ حال إلـــى باطن المريد كسراج يقتبس من سراج) [3]، كانوا يهدفون ليجعلوها أصلاً لطريقتهم ونحلتهم فرفعوها إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه مع أنه لم يختص بين الصحابة بنحلة ولا طريقة فـــي لبـــاس ولا حال[4].

وإذا لبس المريد خرقة التصوف تصبح العلاقة مـــع الشـــيخ إلـــى حـــد كبيـــر بحيـــث أنـــه يلزم السكون بحضرة الشيخ ولا يقول شـــيئاً إلا إذا اســـتأمر الشـــيخ، وألا يحـــدث نفســـه بطلـــب منزلة فوق منزلة الشيخ، وأن يراعـــي خطـــوات الشـــيخ فـــي جزئيـــات الأمـــور وكلياتهـــا، وألا يستقل بوقائعه وكشفه دون مراجعة الشيخ[5]، وقد عبر عـــن هـــذه العلاقـــة الفقيـــه عبـــد الوهـــاب بن أحمد الشـــعراني(ت973هـــ/1565م) [6] بقولـــه: (إن المريـــد مـــع شـــيخه علـــى صـــورة

([1]) المزق هي القطع من الثوب الممزوق، والقطعة منه مزقة. الفارابي، أبو نصر إسماعيل بن حمـــاد الجـــوهري (ت393 هـــ /1003م) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ط4، ج4، تحقيق أحمد عبد الغفـــور عطـــار، دار العلم للملايين، بيروت 1987 ص1554 .

([2]) هوارت، الخرقة، دائرة المعارف الإسلامية، ج8، ص294-295.

([3]) السهروردي، عوارف المعارف، ص61.

([4]) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج1، ص473.

([5]) السهروردي، عوارف المعارف، ص404-405-411.

([6]) عبد الوهاب بن أحمد الشعراني من علماء الصوفية ولد في مصر بقلقشندة ونشا بساقية أبي شـــعرة مـــن قـــرى المنوفية بمصر واليها نسب فقيل الشعراني له تصانيف منها "الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية وأدب القضاة وغيرها توفي بالقاهرة سنة (973 هـــ /1565م) الغزي، الكواكب السائرة، ج3، ص157-158.

الميت لا حركة ولا كلام ولا يقدر أن يتحدث بين يديه إلا بإذنه ولا يعمل إلا بإذنه، من زواج أو سفر أو خروج أو دخول أو عزلة أو مخالطة، أو اشتغال بعلم أو قرآن أو ذكر أو خدمة لزاوية أو غير ذلك)[1].

ويسمى الزمن الذي يمضيه المريد مع الشيخ "زمن الارتضاع" وتصل المدة التي يقضيها المريد قبل أن يؤذن له بالعهد ما يقرب من ثلاث سنوات، فالسنة الأولى يقضيها المريد في خدمة القوم والثانية في خدمة الله والثالثة في مراقبة كلية[2].

وبالغ بعض شيوخ الصوفية في عصر المماليك، فاشترطوا في العهد الذي يأخذونه على مريديهم إن المريد لا يبقى له تصرف في ماله ولا نفسه إلا بمراجعة الشيخ وأمره[3]، وقيل أيضاً من قال لشيخه لِمَ؟ لا يفلح أبداً، وقال بعض المشايخ: عقوق لا توبة عنها[4].

ومن مظاهر احترام المريد للشيخ أن يكتفي بشيخ واحد لأنه كلما أيقن بتفرد الشيخ بالمشيخة عرف فضله وقويت محبته له، وعليه مراعاة كل حركات الشيخ وأن يراجعه في كل صغيرة وكبيرة[5]، وبالمقابل فإن الشيخ عليه مجموعة من الواجبات لا بد من أن يلتزم

([1]) السهروردي، عمر بن محمد (ت632 هـ /1234م) آداب المريدين، تحقيق حسين حميد مجيد، دار اليازوري، عمان 2010 ص123–124 . الشعراني، عبد الوهاب بن أحمد (ت973 هـ /1565م) الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية ج1 تحقيق طه سرور والسيد محمد الشافعي، مكتبة المعارف، بيروت 1985 ص189 .

([2]) السهروردي، عوارف المعارف، ص387.

([3]) السهروردي، عوارف المعارف، ص411–412.

([4]) السهروردي، آداب المريدين، 125.

([5]) السهروردي، عوارف المعارف، ص411–412.

بها، إذ عليه أن يرفق بالمريدين ويتعطف على أصحابه ويقضى حقوقهم، وأن يتنزه عن مال المريد ولا يطمع به، وعليه حفظ الأسرار وعدم إفشائها[1].

إن التصوف العملي يعني الاعتقاد في الشيخ حياً أو ميتاً كما مر سابقاً، وحين يوصف أحد الأشياخ من الصوفية فإنه كان يوصف بالعبارة الآتية:" حسن الطريقة" أي في الأولياء الصوفية، وهو ما تعارف عليه العصر وتناقلته المصادر التاريخية وهذا دليل على عمق التأثر بالتصوف وشيوعه وسيطرته بشكل كبير جداً في العصر المملوكي.

لقد عرفت السلطة المملوكية بالتجبر والبطش في كثير من الأحيان، وليس أدل على ذلك من رسالة بعث بها بعث بها تيمورلنك إلى السلطان برقوق سنة (796هـ/1393م) قال فيها : (وكيف يسمع الله دعاءكم وقد أكلتم الحرام وضيعتم جميع الأنام وأخذتم أموال الأيتام وقبلتم الرشوة من الحكام) [2]، فكانت هذه الرسالة هي توصيف لحالة العلاقة بين الطرفين في هذه الفترة وما بعدها حتى سقوط الدولة نهائياً سنة (923هـ/1516م) على يد العثمانيين[3]، ولكن بالرغم من ذلك فقد كان السلطان المملوكي يخضع للشيخ الصوفي ويلتمس منه البركات، وأبرز مثال على ذلك السلطان

([1]) السهروردي، عوارف المعارف، ص419-421. العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص182.

([2]) ابن عربشاه، أحمد بن محمد (ت854 هـ /1450م) عجائب المقدور في أخبار تيمور، ط1، كلكتا، 1817 ص136. الصيرفي، علي بن داوود (ت900هـ/1494م)، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، ج1، تحقيق حسن حبشي، دار الكتب، مصر 1970 ص379. أحمد، عبد الرزاق، البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1979 ص31-32 .

([3]) للمزيد عن بطش الدولة المملوكية انظر ما يلي: النويري، شهاب الدين أحمد (ت733هـ/1232م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، ط1، ج30، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة 2002 ص98. اليونيني، أبو الفتح موسى بن محمد (ت726هـ/1326م) ذيل مرآة الزمان، ط2، ج3، بعناية: وزارة التحقيقات الحكمية والأمور الثقافية للحكومة الهندية، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة 1992 ص95-96. الصفدي، الوافي بالوفيات ، ج17، ص314.

الظاهر بيبرس مع الشيخ خضر المهراني العدوي[1]، فقد تغاضى السلطان الظاهر بيبرس عن كثير من هفواته لأنه يعتقد في ولايته، ومعرفته للغيب[2].

وكان سبب معرفة الشيخ خضر بالسلطان الظاهر بيبرس أنه لما كان مقيماً بجبل المزة وكان يقول له:(لا بد ما يتسلطن بيبرس البندقداري)، فلما ملك بيبرس صار له عقيدة وقربه وأدناه، وكان ينزل إلى زيارته في الأسبوع مرة ومرتين وثلاثاً على قدر ما يتفق ولم يكن ينقطع عنه، وكان يطلعه على غوامض أسراره ويستشيره في أموره ولا يخرج عن رأيه ويستصحبه في سائر أسفاره، وكان يخبر بيبرس بأمور قبل وقوعها فتقع على ما يخبر به، وهذا ما كان محفزاً للسلطان بيبرس لبناء الزوايا فبنى زاوية بدمشق (بجبل المزة)، وزاوية بظاهر بعلبك، وزاوية بحماة، وزاوية

([1]) خضر أبي بكر محمد بن موسى المهراني العدوي شيخ الظاهر بيبرس، كان الظاهر ينزل لزيارته في الشهر مرات ويحادثه بأسراره ويصحابه في أسفاره (ت671 هـ /1272م). بيبرس، الدوادار (ت725هـ/1324م) زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق زبيدة محمد عطا، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، القاهرة 2001 ص146. الدواداري، أبو بكر عبدالله بن أيبك (ت736هـ/1432م) الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، ج8، تحقيق، صلاح الدين المنجد وسعيد عاشور واولرخ هارمان وهانس روبرت رويمر، القاهرة 1972 ص220-224. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص245.

([2]) النويري، نهاية الأرب، ج30، ص176. ابن كثير، النهاية والبداية، ج13، ص309.

بالقاهرة، وزاوية بالحسينية[1]، وزاوية على الخليج محاذية لأرض الطبالة[2]، ووقف عليها بساتين يأتي منها في كل سنة فوق ثلاثين ألف درهم وفي جميع الزوايا يوجد فقراء[3].

وكان من عظيم منزلته عند السلطان تصرفه وكأنه أمير، فقد دخل مرة كنيسة فذبح قسيسها بيده ونهب ما فيها لأصحابه، وحولها مدرسة أنفق عليها أموالاً كثيرة من بيت المال وسماها المدرسة الخضراء، وكذلك فعل بكنيسة اليهود بدمشق دخلها ونهب ما فيها ومد بها سماطاً وعمل فيها سماعاً واتخذها مسجداً مدة[4]، ومع أن هذه الرواية التي تناقلها المؤرخون عن ابن كثير فيها مبالغة إلا أن فيها دلالة واضحة على عظيم منزلته عند السلطان، حتى عندما حبس لم يحبس في السجون العادية بل حبس في القلعة وكانت تأتيه المآكل المفتخرة[5].

([1]) الحسينية من أحياء القاهرة منسوبة لجماعة من الأشراف الحسينيين، وكانوا في الأيام الكاملية قدموا من الحجاز، فنزلوا خارج باب النصر واستوطنوها، وبنوا بها مدابغ صنعوا بها الأديم المشبه بالطائفي، فسمّيت بالحسينية. المقريزي، أحمد بن علي (845هـ/1441م) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط1، ج3، دار الكتب العلمية، بيروت 1997 ص42.

([2]) أرض الطبالة على جانب الخليج الغربيّ بجوار المقس، كانت من أحسن منتزهات القاهرة، يمرّ النيل الأعظم من غربيها عندما يندفع من ساحل المقس، وقد سميت بذلك نسبةً إلى امرأة مغنية تعرف بنسب، وقيل بطرب. المقريزي، الخطط، ج3، ص225.

([3]) النويري، نهاية الأرب، ج30، ص242. ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت735 هـ /1334م) تاريخ ابن الفرات، م7، تحقيق قسطنطين زريق، جامعة بغداد، بغداد 1970 ص102 .

([4]) ابن كثير، النهاية والبداية، ج13، ص309. العيني، بدر الدين محمود (ت855هـ/1451م)، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج1، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة 1987 ص136. ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت874هـ/1470م)، النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، ط2، ج7، دار الكتب والوثائق القومية، مصر 2005 ص162.

([5]) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج3، ص265. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص277 . ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد (ت1089هـ/1678م) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط1، ج7، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق 1986 ص613-614.

وقد كان السلطان يحبه كثيراً حتى إنه سمَّى بعض أولاده خضرا موافقة لاسمه[1]، كما عرف عن السلطان الظاهر بيبرس أنه كان يجمع حوله عناصر من الصوفية ومشايخهم، ويمضي برفقتهم وكثيراً ما يقوم بالإنفاق عليهم بالأعطيات[2]، وعرف عن السلطان المنصور قلاوون أنه كان ينفق على الصوفية بكثرة، ودفن بمقابر الصوفية عند وفاته[3]، وحرص على إنشاء الأربطة لهم فنسب إليه الرباط المنصوري[4] في بيت المقدس، ومن بعده كان السلطان الأشرف خليل ينفق إنعامات كثيرة على الصوفية[5].

وإذا تجاوزنا فترة الدراسة فإننا سنجد أمثلة أكثر على العلاقة المميزة بين سلاطين المماليك وبين شيوخ الصوفية، فهذا أحد الصوفية يسمى أحمد بن أحمد الزهوري (ت801هـ/1398م) [6] كان إذا جلس عند السلطان الظاهر برقوق وكلمه يأخذ السلطان كلامه على سبيل المكاشفة، وكان

([1]) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص309.

([2]) ابن شداد، محمد بن علي بن إبراهيم (ت684هـ/1285م)، تاريخ الملك الظاهر، باعتناء أحمد حطيط، فرانز شتاينر بفيسبادن، مركز الطباعة الحديثة، بيروت 1983، ص271-272.

([3]) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص273.

([4]) االعليمي، أبو اليمن عبد الرحمن بن محمد (ت928هـ/1521م) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج2، دار المحتسب، عمان 1973 ص43.

([5]) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج8، ص111. المقريزي، أحمد بن علي (845هـ/1441م) السلوك لمعرفة دول الملوك، ط1، ج2، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت 1997 ص227.

([6]) أحمد بن أحمد بن عبد الله الزهوري العجمي نزيل دمشق، كان بزي الفقراء، وكانت تقع له مكاشفات لما كان بدمشق وكان يحضر مجلس السلطان برقوق ويدخل على حريمه فلا يحتجبن عنه وكان للناس فيه اعتقاد (ت801 هـ /1398م). السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت902هـ/1496م) الذيل الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ط1، ج1، تحقيق عبد اللطيف حسن، دار الكتاب العلمية، بيروت 2003 ص215.

يقيم عنده غالباً في الدور السلطانية عند الخواندات[1] كما كان يجلس مع السلطان على المقعد الـذي كان يجلس عليه ويسبه بحضرة الأمراء وربما بصق في وجهه فلا يتأثر لذلك[2].

وهناك نص للشعراني يوضح علاقة الشيخ بمريده إذا كان أميراً أو سلطاناً مملوكياً فيقول:"

وما منّ الله علي أني لا أحجب أحداً من الأمراء إلا إن غلب على ظنه دخوله تحـت طـاعتي بطيبة نفسه، بحيث يرى خروجه عن طاعتي من جملة المعاصي التي تجب التوبة عليه منها فـوراً، وكل أمير لا ينشرح صدره ويفرح بقلبه بالخروج عن جميع وظائفه وماله ونسـائه ورقيقـه ودوره وبساتينه إذا أمره شيخه بذلك فلا يصلح للفقير – أي الصوفي– أن يصحبه، ومن أدب الأميـر مـع الفقير أن يراه في غيبته أعظم حرمة من بعض ملوك الدنيا"[3].

ومن أدب الأمير أن لا يطلب من شيخه أن يكون معه على خصمه، وألا يطلب مساعدة شيخه، وألا يرى الأمير فضلاً له على شيخه بما يرسله إلى زاويته من أصناف الأطعمة، وإذا طرده الفقيـر عن صحبته ألا يبرح بابه، ولا يجتمع بغيره من الفقراء، وعلى الأمير الخضوع والذلة لشـيخه، وأن يوالي من يواليه ويعادي من يعاديه (فمن عادى الشيخ فقد عادى الله)، وألا يطلب من الشيخ حاجـة إلا وهو في غاية الذل والانكسار والفاقه، وأن يأمن شيخه على عياله وحريمه ولو اختلى بهـم، ولا يخطر بباله أنه ينظر إلى إحداهن بشهوة، وإلا فقد أساء الأدب على الشيخ، وأن يمـرض لمـرض شيخه، وأن يحزن لحزنه، وأن يرى النعم التي يعيش فيها من بركة شيخه، وأن يرضى بحكم شـيخه

([1]) خوند لفظ فارسي ومعروف كذلك باللغة التركية، أصله خداوند ويعني السيد أو الأمير ويخاطـب بهـا الـذكور والإناث، غلب استخدامه كلقب عام تخاطب بـه السـيدة أو الأميـر. النـويري، نهايـة الأرب، ج6، ص78. الظاهري، غرس الدين خليل بن شاهين (ت873هـ/1468م) زبدة كشف الممالك وبيـان الطـرق والمسـالك، وضع حواشيه خليل المنصور، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 1997، ص121.

([2]) ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي (ت852هـ/1448م) الدرر الكامنة في أعيان المائـة الثامنـة، ج4، تحقيق محمد عبد المعين خان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، الهند 1972 ص36–37. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج13، ص10.

([3]) الشعراني، عبد الوهاب بن أحمد (ت973 هـ /1565م) إرشاد المغفلين، ص 55.

فيه، كما يرضى العبد بحكم سيده، والأمير مع الفقير كعبد السوء مع سيده الكريم، الواسع الخلق، وعليه أن يعرض على شيخه كل قليل أفخر ما عنده من الملابس والمطاعم والمشارب إظهاراً لشدة محبته له، وبياناً لكون لا يدّخر عنه شيئاً، وأن يخلص النية كلما أراد الخروج لزيارة شيخه فلا تكون لعلة دنيوية أو أخروية....." [1]، ومن خلال النص السابق يتبين أن الصوفية جعلوا من أنفسهم أشخاصاً مقدسين على مريديهم، ولعل هذه ميزه تفرّد بها التصوف في العصر المملوكي فقط فلا نجد شبيهاً بذلك في أي من العصور.

أما عن شيوع التصوف في المجتمع المصري فليس أدل على ذلك من قضية التوسل بالأولياء، فهو كان أبرز نشاط ديني واجتماعي للناس، فقد اشتهر عبداً أسود بالولاية فتوافدوا عليه من كل مكان[2]، وهناك طفلة صغير في قليوب اشتهرت بالولاية فتوجه الناس إليها أفواجاً، فبلغ أجر كل دابة من القاهرة إلى قليوب دينار أشرفي، وتوجه إليها جماعة من الخاصكية والأمراء والأعيان[3].

ولدينا نص يورده ابن تغري بردي في كتابه النجوم الزاهرة يبين فيه اعتقاد الناس في المجذوب الشيخ يحيى الصنافيري :" أجمع الناس على اعتقاده وهو لا يفيق من سكرته، فلما كثر ترداد الناس إليه للزيارة من كل فج، صار يرجمهم بالحجارة، فلم يردهم ذلك عنه رغبة في التماس بركته، ففر منهم وساح في الجبال مدة طويلة. ثم نزل صنافير بالقليوبية من قرى القاهرة، فكان كل يوم في أيام الشتاء يغطس في الماء البارد صبيحة نهاره وفي شدة الحر يجلس عريانا مكشوف الرأس فى الشمس، وليس عليه سوى ما يستر عورته، فكان يقيم على سقيفة طابونة سوداء، أقام على ذلك ثلاث سنين، لا ينزل عنها وبنى له بعض الأمراء زاوية، فلم يسكنها ولا التفت اليها وكان

([1]) الشعراني، عبد الوهاب بن أحمد (ت973 هـ /1565م) إرشاد المغفلين، ص58.

([2]) ابن إياس، محمد بن أحمد (ت930هـ/1425م) بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج2، تحقيق محمد مصطفى، فرانز شتاينر فيسبادن، ألمانيا 1974 ص277.

([3]) ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج4، ص165.

الناس يترددون اليه فوجاً فوجا ما بين قاض وعالم وأمير ورئيس وهو لا يلتفت إلى أحد منهم"[1]، وكان شمس الدين الحنفي إذا دخل الحمام، وحلق رأسه تقاتل الناس على شعره يتبركون به، ويجعلونه ذخيرة عندهم[2]، وتقاتل الناس أيضاً على الشيخ الدشطوطي يتبركون به[3]، وكذلك كان الشيخ محمد الضيروطي لا يكاد يمشي وحده بل يتبعه الناس، ومن لم يصل إليه رمى بردائه عليه حتى يمس ثيابه به، ثم يرده إليه ويمسح به وجهه[4]، وقد شهد الشعراني ذلك وقال: "كما يفعل الناس بكسوة الكعبة[5]، ولم ينجُ الشعراني نفسه من هذا التقديس فقد دخل الجامع الأزهر في إحدى المرات في صلاة جنازة، فأكبّ الناس عليه يقبّلون يده، ويخضعون له، وشيّعوه حتى الباب حتى صاروا أكثر من الحاضرين في الجنازة[6].

وكان إذا مات الشيخ الصوفي يتنافس الناس في للحصول على الماء الذي غُسل به للتبرك به، وكانوا أيضاً يتسابقون لشراء ثيابه لتكون حرزاً يتحرّزون به[7]، ولمّا مات الشيخ الشنّاوي تقاتل الناس على نعشه، وأصيبوا بالذهول في عقولهم من عظم المصيبة التي حلّت بهم، مما دفع ذويه لدفنه خفيةً عنهم[8]، ومن خلال ما سبق يتبين تعاظُم سيطرة التصوف حتى أنه تسيّد الموقف في العصر المملوكي، وكان ذا أثر بالغ في الحياة السياسية والحضارية والدينية والأخلاقية.

---

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج11، ص118-119.

(2) الشعراني، الطبقات الكبرى، ج2، ص83.

(3) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج10، ص180-181.

(4) الغزي، نجم الدين محمد بن محمد (ت1061هـ/1651م)، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، ط1، ج1، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت 1997 ص85.

(5) الشعراني، تنبيه المغتربين، ص93.

(6) الشعراني، عبد الوهاب بن أحمد (ت973 هـ /1565م) لطائف المنن، القاهرة 1988 ص63.

(7) بيبرس، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ص 121.

(8) الشعراني، الطبقات الكبرى، ج2، ص117.

وحين نواصل الحديث عن التصوف وانتشاره في العصر المملوكي لا بد من ذكر أبرز شخصيتين صوفيتين في أوائل العصر المملوكي، الأول هو ابن عربي[1] آخر فلاسفة التصوف الكبار، وبموته انتهى التصوف النظري وبدأ عصر التصوف الطرقي العملي، إلا أن طريقته ظلّ تأثيرها خلال العصر المملوكي، وقد وفد إلى مصر من تلاميذ ابن عربي الصوفي المعروف عفيف الدين التلمساني [2]، وهو من عظماء الطائفة القائلين بالوحدة المطلقة، وقد أثنى عليه ابن سبعين وفضّله على شيخه القونوي، وقد نزل التلمساني بخانقاه سعيد السعداء الشهيرة، وولد له فيها ابنه الشاعر محمد شمس الدين المعروف بالشاب الظريف[3].

أما الشخصية الثانية فهو ابن الفارض[4] وهو سلطان العاشقين عند الصوفية، وهو أشهر شعراء الاتحاد ووحدة الوجود، وقد حكم علماء العصر المملوكي بتكفير ابن الفارض، فقد حكم

([1]) محمد بن علي بن محمد، ابن العربي، الملقب بالشيخ الأكبر، ولد في مرسية (بالأندلس) وانتقل إلى إشبيلية، وقام برحلة، فزار الشام وبلاد الروم والعراق والحجاز، وأنكر عليه أهل الديار المصرية (شطحات) صدرت عنه، فعمل بعضهم على إراقة دمه، كما أريق دم الحلاج وأشباهه، ثم استقر في دمشق، فتوفي فيها سنة (ت638 هـ /1240م)، له نحو أربعمائة كتاب ورسالة، منها الفتوحات المكية، ومحاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار، وديوان شعر وفصوص الحكم ومفاتيح الغيب والتعريفات وعنقاء مغرب، والإسرا إلى المقام الأسرى وغيرها الكثير. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج3، ص435-438.

([2]) سليمان بن علي بن عبد الله بن علي الكومي التلمساني، تنقل في بلاد الروم وسكن دمشق، فباشر فيها بعض الأعمال. وكان يتصوف ويتكلم على اصطلاح (القوم) يتبع طريقة ابن العربي، في أقواله وأفعاله، واتهمه فريق برقة الدين والميل إلى مذهب النصيرية، وصنف كتبا كثيرة، منها شرح مواقف النفزي وشرح الفصوص لابن عربي، وكتاب في العروض وشرح منازل السائرين للهروي، مات في دمشق سنة (690 هـ /1291م). ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج7، ص719.

([3]) الكتبي، محمد بن شاكر (764هـ/1362م) فوات الوفيات، ط1، ج2، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1973 ص72-73.

([4]) عمر بن علي بن مرشد بن علي الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، يلقب بسلطان العاشقين، نشأ بمصر في بيت علم وورع، ولما شب اشتغل بفقه الشافعية ثم تزهد وتجرد، وجعل يأوي إلى المساجد المهجورة في خرابات القرافة (بالقاهرة) وأطراف جبل المقطم، وذهب إلى مكة في غير أشهر الحج، وعاد إلى مصر بعد خمسة عشر عاما، فأقام بقاعة الخطابة بالأزهر، وقصده الناس بالزيارة، حتى أن الملك الكامل كان ينزل لزيارته (ت632 هـ /1235م). ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص454-456.

بتكفيره عز الدين بن عبد السلام[1]، وابن الصلاح الشافعي[2]، وقام ابن حمدان الحنبلي[3] بشرح التائية وأوضح كفره وزندقته فيها في كل بيت من أبياتها، وكذلك فعل أبو علي السكوني[4] وابن

(1) عبد العزيز بن عبد السلام، ملقب بسلطان العلماء، فقيه شافعي بلغ رتبة الاجتهاد، ولد ونشأ في دمشق، وزار بغداد سنة 599هـ/1203م فأقام شهراً، وعاد إلى دمشق، فتولى الخطابة والتدريس بزاوية الغزالي، ثم الخطابة بالجامع الأموي (ت660 هـ /1262م). الكتبي، فوات الوفيات، ج2، ص350.

(2) عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان الشهرزوري، المعروف بابن الصلاح، أحد الفضلاء المقدمين في التفسير والحديث والفقه ، ولد في شرخان (قرب شهرزور) وانتقل إلى الموصل ثم إلى خراسان، فبيت المقدس حيث ولي التدريس في الصلاحية. وانتقل إلى دمشق، فولاه الملك الأشرف تدريس دار الحديث، وتوفي فيها سنة (643 هـ /1245م). ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص243.

(3) محمد بن أحمد بن حمدان بن علي بن عبد الله بن سنان، الإمام الحافظ، أبو العباس، أخو الزاهد أبي عمر، ابنا الحافظ أبي جعفر الحيري النيسابوري محدث خوارزم، كان محبباً إلى الناس متبركاً به، نافذ الكلمة، قدموه للاستسقاء بهم. (ت356 هـ /967م) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج16، ص193.

(4) عمر بن محمد بن حمد بن خليل السكوني، مقرئ، من فقهاء المالكية، شبيلي نزل بتونس، له كتب، منها التمييز لما أودعه الزمخشري من الاعتزالات في تفسير الكتاب العزيز (ت717 هـ /1317م). الزركلي، خير الدين بن محمود، الأعلام، ط15، ج5، دار العلم للملايين، 2002 ص63.

الحاجب[1]، وابن دقيق العيد[2]، وابن بنت الأعز[3]، وابن جمّاعة[4] وعيسى الزواوي[5]، وتقي الدين السبكي[6]، وابن تيمية[7].

(1) عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس بن الحاجب، فقيه مالكي، من كبار العلماء بالعربية، كردي الأصل، ولد في أسنا (من صعيد مصر) ونشأ في القاهرة، وسكن دمشق (ت646 هـ /1249م). ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص248.

(2) محمد بن علي بن وهب بن مطيع، ابن دقيق العيد، قاض، من أكابر العلماء بالأصول، نشأ بقوص، وتعلم بدمشق والإسكندرية ثم بالقاهرة، وولي قضاء الديار المصرية، فاستمر الى أن توفي بالقاهرة سنة (702 هـ /1302م) له تصانيف عدة. الكتبي، فوات الوفيات، ج3، ص442.

(3) عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن خليفة العلامي المصري، وزير، فقيه، له نظم حسن، ولي الوزارة مع القضاء بمصر، ثم استعفى وتولى التدريس بالمدرسة المجاورة لضريح الشافعي (ت695 هـ /1296م). الصفدي، الوافي بالوفيات، ج7، ص109.

(4) إبراهيم بن عبد الرحيم بن محمد ابن جماعة الكناني، خطيب الخطباء وشيخ الشيوخ، وكبير طائفة الفقهاء، ولد بمصر ونشأ بدمشق، وسكن القدس، وولي قضاء الديار المصرية مراراً، وكان يعزل نفسه، ويتوجه إلى القدس، ثم يسترضيه السلطان ويعود إلى مصر، وولي قضاء دمشق والخطابة بها ومشيخة الشيوخ (ت790 هـ /1388م). الكتبي، فوات الوفيات، ج3، ص297-298.

(5) عيسى بن مسعود بن منصور الزواوي الحميري، فقيه من العلماء بالحديث، من أهل زواوة (بالمغرب) تفقه ببجاية والإسكندرية، ورجع إلى فاس فولي القضاء بها، وانتقل إلى مصر فدرس في الأزهر، وناب في الحكم بدمشق، ثم بالقاهرة، وأعرض عن الحكم منقطعا للتصنيف (ت743 هـ /1342م). ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي (ت852هـ/1448م) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج4، تحقيق محمد عبد المعين خان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، الهند 1972 ص246-248.

(6) علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام السبكي، شيخ الإسلام في عصره، وأحد الحفاظ المفسرين المناظرين، وهو والد التاج السبكي صاحب الطبقات، ولد في سبك (من أعمال المنوفية بمصر) وانتقل إلى القاهرة ثم إلى الشام، وولي قضاء الشام واعتل فعاد إلى القاهرة، فتوفي فيها سنة (756 هـ /1355م). السبكي، تاج الدين عبد الوهاب (ت771هـ/1369م) طبقات الشافعية الكبرى ط2، ج10، تحقيق محمود الطناجي وعبد الفتاح الحلو، دار هجر، الرياض 1992 ص157.

(7) أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن عبد الله بن أبي القاسم الحنبلي، تقي الدين ابن تيمية، ولد في حران وتحول به أبوه إلى دمشق فنبغ واشتهر، وطلب إلى مصر من أجل فتوى أفتى بها، فقصدها، فتعصب عليه جماعة من أهلها فسجن مدة، ونقل إلى الإسكندرية. ثم أطلق فسافر إلى دمشق سنة 712 هـ/1312م واعتقل بها سنة 720 هـ /1320م وأطلق، ثم أعيد، ومات معتقلا بقلعة دمشق سنة (728 هـ /1328م)، فخرجت دمشق كلها في جنازته. الكتبي، فوات الوفيات، ج2، ص323-324.

المبحث الثاني: الصراع بين الفقهاء والمتصوفة في مصر في العصر المملوكي

ما أن يطل القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي حتى يشهد ثورة للفقهاء بقيادة ابن تيمية على نفوذ أتباع ابن عربي، وتمثّل هذا النفوذ بسيطرة نصر المنبجي[1] الذي سيطر على السلطان بيبرس الجاشنكير[2] الذي اغتصب الناصر محمد بن قلاوون السطنة[3].

يذكر المؤرخ بيبرس الدواداري وهو الذي كان معاصراً لهذه الفترة أنه عقد مجلس سنة (705هـ/1306م) لمحاكمة ابن تيمية، " وسألوه في مواضع خارجاً عن العقيدة، ثم رجعوا واتفقوا أن يحاققه ابن الزملكاني من غير مسامحة، وانفصل الأمر بينهم على أنه أشهد على نفسه الحاضرين أنه شافعي المذهب، وابتهج أصحاب الشيخ وقالوا : ظهر الحق مع شيخنا، فعزّروا أحدهم، ثم حُبس أحد أصحاب ابن تيمية لأنه قرأ فصلاً في الرد على الجهمية من تصنيف البخاري، فظنّوا أنهم المقصودون بالتكفير، فأخرجه ابن تيمية من الحبس وتنازعوا وكان نائب السلطان في الشام غائباً في

([1]) محمد بن محمد بن محمد، شمس الدين المنبجي، متصوف حنبلي، أصله من منبج وسكن الصالحية بدمشق توفي سنة (785هـ/1383م) له كتب منها منهاج السالكين وعمدة البصراء السائرين. الزركلي، الأعلام، ج7، ص41-42.

([2]) بيبرس الجاشنكير المنصور، ركن الدين الملك المظفر من مماليك المنصور قلاوون ، تسلطن سنة (ت708هـ/1309م) كان كثير السكون والوقار وحسنت سيرته (ت709هـ/1310م) الكتبي، فوات الوفيات، ، ج1، ص85. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج2، ص41-48.

([3]) لعل أول مواجهة حقيقة كانت بين الفقهاء والصوفية مع أحمد بن محمد البققي المصري فقد " ادّعى عليه عند القاضي المالكي زين الدين ابن مخلوف بما يقتضي الانحلال واستحلال المحرمات والاستهزاء بالدين وأخرج محضر كتب عليه في سنة 686 هـ /1287م وقامت عليه البينة بذلك فحبس فكتب ورقة من الحبس إلى ابن دقيق العيد صفة فتيا فكتب عليها أن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف فأرسلها إلى المالكي فقال هذه في الكفار إذا أسلموا ورجعوا ثم أحضر من السجن قدام شباك الصالحية فأعيدت عليه الدعوى فاعترف وصار يتلفظ بالشهادتين ويصيح بابن دقيق العيد ويقول يا مسلمين أنا كنت كافرا وأسلمت فلم يقبل منه المالكي وحكم بقتله فضربت رقبته بين القصرين وذلك في شهر ربيع الأول سنة 701 هـ /1302م. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج1، ص366.

الصيد، فلما جاء اعتقل من أكثر من الكلام من الطائفتين –الفقهاء والصوفية–، وهدّد من تكلم في العقائد ليخمد الفتنة"[1].

أما المحاكمة الثانية ففيها كان اجتماع القضاة للبحث في شؤون العقيدة، وانتهى الاجتماع بين ابن الوكيل[2] وابن الزملكاني[3] بأن جعل القاضي نجم الدين بن صصري[4] يعزل نفس رغم إلحاح الأمراء عليه، ثم ورد من مصر كتاب بعودته للحكم، ومضمون أحد الكتابين فيه ما يأتي: قد فرحنا بإجماع رأي العلماء على عقيدة الشيخ تقي الدين بن تيمية، فباشر القاضي نجم الدين في مستهل شهر رمضان وسكنت الفتنة، ثم ورد مرسوم آخر بطلب نجم الدين بن صصري وابن تيمية وابن الزملكاني، وفيه إنكار على ابن تيمية، ثم وصل مملوك ملك الأمراء[5] على البريد، وأخبر أن الطلب على ابن تيمية حثيث، وأن القاضي المالكي ابن مخلوف قد قام في الأمر قياماً عظيماً، وإن بيبرس الجاشنكير معه في الأمر، وأخبر بأشياء كثيرة وقعت في مصر في حق الحنابلة أتباع ابن تيمية، وأن بعضهم أهين، وإن القاضي المالكي المنحاز للصوفية والحنبلي المؤيد للفقهاء جرى بينهما كلام

([1]) الدواداري، أبو بكر عبدالله بن أيبك (ت736هـ/1432م) الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ج9، تحقيق هانس روبرت رويمر، 1960ص133–136.

([2]) محمد بن عبد الله بن عمر بن مكي، ابن الوكيل، فقيه شافعي مولده ووفاته بدمشق تعلم بها وبالقاهرة، وكان من أحسن الناس شكلا، عارفا بالفقه وأصوله (ت738 هـ /1338م). الزركلي، الأعلام، ج6، ص243.

([3]) محمد بن علي بن عبد الواحد الأنصاري المعروف بابن الزملكاني، انتهت إليه رياسة الشافعية في عصره، وتصدر للتدريس والإفتاء بدمشق، وولي نظر ديوان (الأفرم) ونظر الخزانة ووكالة بيت المال، وكتب في ديوان الإنشاء ثم ولي القضاء في حلب فأقام سنتين، وطلب لقضاء مصر، فقصدها، فتوفي في بلبيس ودفن بالقاهرة سنة (727 هـ /1327م). ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج5، ص328.

([4]) أحمد بن محمد بن سالم، نجم الدين ابن صصري، قاض، من الكتاب، له نظم، وكان من العلماء بالحديث، من أهل دمشق، عمل في دار الإنشاء وولي قضاء القضاة سنة 720هـ/1322م إلى أن مات بحماة سنة (721 هـ /1323م). ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج1، ص312.

([5]) المقصود هنا بيبرس الجاشنكير الذي لم يكن قد ولي السلطة بعد.

كثير، فأمر ملك الأمراء بتجهيزهم فوصلوا في رمضان، وعقد مجلس لابن تيمية في دار النيابة بمصر بحضور سلار[1] والعلماء والأئمة والقضاة الأربعة وبيبرس، فادّعى ابن عدلان[2] القاضي الشافعي على ابن تيمية دعوى شرعية في عقيدته، فأراد ابن تيمية أن يذكر عقيدته في فصل طويل، فقالوا له: يا شيخ اللي بتقوله معلوم ولا حاجة للإطالة، وأنت قد ادّعى عليك هذا القاضي بدعوى شرعية أجب عليها، فأعاد القول في التحميد، فلم يمكّنوه في تتمة تحاميده، فقال: عند من هي هذه الدعوى؟ فقالوا: عند القاضي زين الدين المالكي، فقال: عدوي وعدو مذهبي، وطال الأمر، فحكم القاضي المالكي باعتقاله، فاعتقل، وسجن إخوته في برج من أبراج القلعة، وبلغ القاضي أن جماعة من الأمراء يترددون إليه وينفذون إليه المآكل، فطلع القاضي للأمير ركن الدين بيبرس في قضيته، وقال: هذا يجب عليه التضييق إذا لم يُقتل وإلا فقد ثبت كفره، فنقلوه هو وإخوته ليلة عيد الفطر إلى الجب بالقلعة، ثم كتب إلى دمشق كتاباً يتضمن حل دم ومال من اعتقد عقيدة ابن تيمية، وقُرئ الكتاب بجامع دمشق وألزم به الحنابلة خصوصاً[3].

ولكن ما هو السبب وراء هذه الحاكمة؟ يذكر المؤرخ بيبرس الدوادار وهو الذي تفرّد بهذه الروايات تحت عنوان " السبب الموجب لهذه الفتن المذكورة"، فيقول : أحضر بعض أصحاب ابن تيمية له كتاب فصوص الحكم لابن عربي، فرأى فيه الشيخ مسائل تخالف اعتقاده، فشرع في لعن

([1]) سلار سيف الدين التتري الصالحي المنصوري؛ كان من مماليك المنصور قلاون، وكان صديق السلطان حسام الدين لاجين ونائبه منكوتمر، ندبوه الأمراء لإحضار السلطان الملك الناصر من الكرك، اشتهر على ألسنة الناس أنه كان يدخله كل يوم مائة ألف درهم، واستمر في دست النيابة إحدى عشرة سنة وكان إقطاعه بضعة وثلاثون طبلخاناه (ت710 هـ /1310م). الكتبي، فوات الوفيات، ج2، ص86-87.

([2]) محمد بن أحمد بن عثمان بن إبراهيم ابن عدلان الكناني، فقيه شافعي مصري، ناب في الحكم عن ابن دقيق العيد، وأرسل إلى اليمن في أيام الناصر محمد بن قلاوون، توفي بالطاعون بمصر سنة (749 هـ /1348م). السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج9، ص97.

([3]) الدواداري، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ج9، ص136-138.

ابن عربي وسب أصحابه ممن يعتقد اعتقاده، وثم اعتكف ابن تيمية في رمضان وصنّف نقيضه وسمّاه النصوص على الفصوص، وبيّن فيه الخطأ الذي ذكره ابن عربي، وبعد ذلك صنّف ابن تيمية كتابين فيهما انكار كثير على تأليف ابن عربي، ولعنه فيهما مصرّحاً ولعن من يقول بقوله، وسيّر كتاباً للشيخ نصر المنبجي وكتاباً آخر للشيخ كريم شيخ خانقاه سعيد السعداء[1]، فلما رآه الشيخ المنبجي تألم كثيراً، وكانت له حظوة كبيرة عند بيبرس الجاشنكير، مع الإشارة إلى أن معظم الأمراء وأرباب المناصب كانوا يترددون عند الشيخ نصر لأجل منزلته عند بيبرس الجاشنكير ، ولما حضر الجاشنكير عند المنبجي جرياً على عادته أطلعه على الأمر، وأنه أفسد عقول جماعة كبيرة، ومن جملتهم نائب الشام وأكابر الأمراء الشاميين، وأن المصلحة تقتضي طلبه إلى الأبواب العالية، ويطلب منه عقيدته وتُقرأ على العلماء بالديار المصرية من المذاهب الأربعة، فإن وافقوه وإلا يستتيبوه ويرجعوه ليرجع عن مذهبه واعتقاده ساير من لعب بعقله من الناس، ثم ذكر له ذنوباً أخرى حتى حرص بيبرس على طلبه"[2]، ولعل هذا يظهر لنا مرة أخرى مدى شيوع وانتشار التصوف ومدى سطوته ونفوذه لدى الأمراء، فقد أصبحت عقيدة وحدة الوجود عقيدةً ذا أثر بالغ في نفوس الناس.

وانتهى الأمر باعتقال ابن تيمية من قبل ابن مخلوف، وقد بارك هذه الخطوة نصر المنبجي، ووافق عليها بيبرس الجاشنكير، ولم يكتف المنبجي بذلك بل سعى لدى بيبرس الجاشنكير حتى منع

([1]) خانقاه سعيد السعداء أوقفها السلطان صلاح الدين بن أيوب، وكانت دارا لسعيد السعداء قنبر عتيق الخليفة المستنصر، فلما تملك الناصر صلاح الدين بالأمر، أوقفها على الصوفية في سنة (569هـ /1173م) ورتب لهم كل يوم طعاماً ولحماً وخبزاً، وهي أول خانقاه عملت بديار مصر، ونعت شيخها بشيخ الشيوخ، وما زال ينعت بذلك إلى أن بنى الناصر محمد بن قلاوون خانقاه سرياقوس، فدعي شيخها بشيخ الشيوخ. المقريزي، الخطط، ج4، ص282. السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص260.

([2]) الدواداري، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ج9، ص143-144.

الأمراء من الاتصال به، وما زال به حتى حُبس في الجب، وهدد أتباعه الحنابلة بالقتل إن أنكروا عقائد الصوفية[1].

وأذاع الصوفية بين الناس أن القضية مع ابن تيمية قضية فقهية ولا علاقة له بالعقيدة، ويُذكر أن المؤرخين اللاحقين أخذوا هذا الافتراء محمل الجد فقال المقريزي:" حبس شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية بسبب مسألة الطلاق"، وأنه أفرج عنه وشُرط عليه ألا يفتي بمسألة الطلاق[2]، ولم يسلم ابن تيمية وهو في السجن من الاضطهاد، ويقول الدواداري:" جرت فتن للحنابلة بمدينة بلبيس ثم انتقل الحال للقاهرة، وحصل لبعض الحنابلة إهانة واعتقل منهم جماعة، وجرت فتن عظيمة بين الأشاعرة والحنابلة بالشام، وكان النايب غايباً بالصيد، فلما حضر أمر بإصلاح ذات البين، وأقرّ كل طايفة على حالها، وجرى في القاهرة أيضاً على الحنابلة أمور شنيعة، وألزموهم بالرجوع عن العقيدة، وجرى عليهم كل مكروه"[3].

ولم يسلم ابن تيمية كذلك من الفقهاء الذين خضعوا لسلطة الحكام الذين أذعنوا لشيوخ الصوفية، وقد أقر ابن الزملكاني بأن ابن تيمية " اجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها"[4]، وقال عنه أيضاً: " وأعان أعداءه على نفسه بدخوله في مسائل كبار لا تحتملها عقول أبناء زماننا ولا علومهم"[5]، وأورد الدواداري إشارات تدل بوضوح على بالغ على جهل القضاة والمزيد من

([1]) ابن كثير، النهاية والبداية، ج14، ص43-44.

([2]) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج3، ص6.

([3]) الدواداري، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ج9، ص144-145.

([4]) ابن الوردي، عمر بن مظفر بن عمر(ت 749هـ / 1349م) تاريخ ابن الوردي، ط1، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت 1996 ص277.

([5]) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج2، ص279.

تعصبهم فيقول: " وكان بعد قيام ابن تيمية قد تكلم بدر الدين بن جماعة[1] في القرآن وعقيدة الشافعي، فقيل لقاضي القضاة الحنفي ما تقول؟ قال : كذا ، فقيل لشرف الدين قاضي القضاة الحنبلي، ما تقول؟ فتلجلج، فقال له شمس الدين المالكي: قم جدّد إسلامك وإلا ألحقوك بابن تيمية، فخجل، فلقنه القاضي بدر الدين بن جماعة فقال مثل قوله"[2]، ويتابع: وكان القاضي شرف الدين الحنبلي قليل البضاعة في العلم، ولم يدر ما يجيب به[3]، ولا بد من الإشارة إلى أن ابن تيمية كان يربأ بنفسه عن بعض من الفقهاء ولا يلتفت إليهم، فيقول الدواداري: " أحضر الأمير سيف الدين سلار، القضاة الثلاثة الشافعي والمالكي والحنفي، ومن الفقهاء الباجي والجزري والنمراوي، وتكلّم معهم في إخراج الشيخ ابن تيمية، فاتفقوا على أن يُشترط عليه أمور ويُلزم بالرجوع عن العقيدة، فأرسلوا إليه من يحضره ليتكلموا معه في ذلك، فلم يجب إلى الحضور، وتكرّر إليه الرسول ست دفعات، وهو مصمّم على عدم الحضور"[4].

وذكر ابن كثير أنهم لم يتمكنوا من النيل من ابن تيمية وهو في السجن فتشاوروا في أمره، واتفقوا على نفيه إلى الاسكندرية، وذلك حتى يقتله أحد أتباع ابن عربي فيها فقال: " وظنوا أن ذلك يؤدي إلى هلاك الشيخ فانقلبت عليهم مقاصدهم الخبيثة وانعكست من كل الوجوه، وأصبحوا وأمسوا

([1]) بدر الدين بن جماعة كان رجلاً جيداً سمع من ابن البرهان بالقاهرة وجلس مدة مع الشهود بدمشق توفي بحماة سنة (703 هـ /1303م) الكتبي، فوات الوفيات، ج3، ص297-298. الصفدي، أعيان العصر، ج1، ص495.

([2]) الدواداري، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ج9، ص138.

([3]) الدواداري، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ج9، ص145.

([4]) الدواداري، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ج9، ص145.

وما زالوا عند الله وعند الناس العارفين سود الوجوه يتقطعون حسرات وندما على ما فعلوا، وانقلب أهل الثغر أجمعين إلى الأخ مقبلين عليه مكرمين[1].

وتوسّط الأمير حسام الدين مهنّا[2] وحدّث السلطان لأجل ابن تيمية، فأمر بأن يُفرج عنه، وذهب الأمير حسام الدين بنفسه للسجن وأخرجه[3]، ولكن القضية لم تنته والصوفية لم يسكتوا عنه، خاصة وأنه وبعد خروجه من السجن أخذ بمباحثة الفقهاء بحضرة الأمير سلار، وعقدت مجالس أخرى بالمدرسة الصالحية[4]، وكان أن أثار الصوفية عليه الغوغاء والعوام، ولحق ابن تيمية بعض الأذى منهم، وكانت ردة الفعل أن تجمّع أهالي الحسينية[5] ليثأروا لابن تيمية، ولكنه أصرّ عليهم بالرجوع لأنه لا ينتصر لنفسه، وفي رجب سنة 711 هـ /1311م اعتدى عليه آخر بالقول المفزع، وأخيراً لجأ الصوفية للسلطان وتجمهروا حول القلعة، وتزعّمهم في هذا ابن يعقوب البكري الذي قام على ابن تيمية وأنكر ما يقوله وآذاه حين دخل مصر[6]، وأيضاً ابن عطاء الله السكندري وكان هم

([1]) ابن كثير، النهاية والبداية، ج14، ص56.

([2]) مهنا (الثاني) بن عيسى بن مهنا بن مانع الطائي، حسام الدين، من آل فضل، ويلقب سلطان العرب، أمير بادية الشام، وصاحب (تدمر)، وآل فضل من طيء، اتصلوا بالحكومات في بدء عهد الدولة الأيوبية، فكانت توليهم على أحياء العرب وحفظ السابلة بين الشام والعراق، وكانت إمارته بعد وفاة أبيه سنة 683هـ/1240م ولاه السلطان المنصور قلاوون (ت735 هـ /1335م). ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج6، ص133-135.

([3]) الدواداري، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ج9، ص150.

([4]) الدواداري، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ج9، ص151. المدرسة الصالحية هذه المدرسة بخط بين القصرين من القاهرة، كان موضعها من جملة القصر الكبير الشرقيّ، بناها الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل. المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج4، ص217.

([5]) الحسينية حارة منسوبة لجماعة من الأشراف الحسينيين، وكانوا في الأيام الكاملية قدموا من الحجاز، فنزلوا خارج باب النصر واستوطنوا، وبنوا بها مدابغ صنعوا بها الأديم المشبه بالطائفي، فسمّيت بالحسينية، ثم سكنها الأجناد بعد ذلك وابتنوا بها هذه الأبنية العظيمة. المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج3، ص42.

([6]) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج8، ص115.

المتكلم على لسان الصوفية في زمانه، قام على الشيخ ابن تيمية فبالغ في ذلك[1]، إلا أن هذه الأحداث لم تنقص من أتباع ابن تيمية بل على العكس من ذلك فقد ازداد أتباعه وكثر محبّوه، يقول الدواداري في ذلك: " ..... والناس يجتمعون به، ويُهرعون إليه، ولم يزل كذلك إلى أن سافر سنة 712ه/1312م[2].

أما المؤامرة الأخرى التي وقع فيها ابن تيمية ضحيةً للمؤامرات فكانت حين عاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون للسلطنة للمرة الثالثة، فقد قام ابن تيمية بمواجهة خطر الشيعة الذي استفحل في بلاد الشام وقاتلهم، وكتب بذلك إلى أطراف الشام يحث على قتالهم واستمر في حصارهم حتى أجلاهم، وكتب بذلك للسلطان الناصر بن محمد، فخشي السلطان من نفوذه، " لأن الناس اجتمعوا عليه، ولو طلب الملك ما بعد عنه"، وانتهز رجال الصوفية هذه الفرصة فكادوا له عند السلطان، وأشاعوا أنه كان يسعى في الإمامة الكبرى وأنه كان يلهج بذكر ابن تومرت[3] ويطريه[4]، ويطريه[4]، بمعنى أنه يريد إقامة دولة مثل ما فعل ابن تومرت في الشمال الافريقي.

ويبدو أن مخاوف السلطان الناصر الذي فقد السلطنة مرتين مسبقاً قد كانت الدافع وراء حرصه على ألا يعلو رأس في مملكته، وأن يقضي في الحكم مستبدّاً، ووجد السلطان أن الصوفية

([1]) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج8، ص37.

([2]) الدواداري، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ج9، ص151.

([3]) محمد بن عبد الله بن تومرت المصمودي البربري، أبو عبد الله، الملقب بالمهدي، ويقال له مهدي الموحدين، صاحب دعوة السلطان عبد المؤمن بن علي ملك المغرب، وواضع أسس الدولة المؤمنية الكومية (ت524 هـ/1130م). ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص237-239.

([4]) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج1، ص182.

خير من يعينه في ذلك، فتم التحالف بين السلطان والصوفية فأقام لهم خانقاه سرياقوس[1]، وافتتحها في حفل جامع سنة 725 هـ /1325م [2]، وفي السنة التالية 726 هـ /1326م أمر السلطان باعتقال صديق الأمس ابن تيمية بسبب فتوى سابقة عن زيارة القبور[3]، وهي من الأمور التي تمس الصوفية في الصميم وتعبر عنهم، ولما كان ابن تيمية يفرح بالاعتقال حيث ينكب على التأليف والكتابة، إلا أنه في هذه المرة مُنع من الكتابة ونشر آرائه مما أثّر على نفسيته، وقد ظل في خصومة مع الشيعة والصوفية، ومات بعد أن قضى عامين في الحبس[4].

لكن السؤال الذي نطرحه هنا هل بقي الصوفية دون ردة فعل؟ أم أنه كان لديهم ردود على مهاجمة ابن تيمية لهم؟

لعل ذلك يتضح أكثر في شخصية الباجريقي، وهو محمد بن جمال الباجريقي (ت724هـ/1323م) وكان الباجريقي في الأصل فقيهاً بالمدارس ثم تصوف وصحب الفقراء وصار له أتباع غير أنه كان يتفوه بالعظائم مثل أن الأنبياء طولت الطريق على الناس إلى الله تعالى، وأنه بإمكانه أن يوصلهم إلى الله بأسرع من الرسل، وقد حكم القاضي المالكي يضرب عنقه

([1]) خانقاه سرياقوس هذه الخانقاه خارج القاهرة من شماليها على نحو بريد منها، بأوّل تيه بني إسرائيل، بسماسم سرياقوس، أنشأها السلطان الناصر محمد بن قلاوون. المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج4، ص294.

([2]) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص83.

([3]) ابن كثير، النهاية والبداية، ج14، ص142.

([4]) ابن كثير، النهاية والبداية، ج14، ص156.

مرة بعد أخرى لثبوت أمور فظيعة فتغيب عن دمشق وأقام بمصر... وكان له قوة تأثير .. وأخيراً جدد القاضي المالكي الحكم بقتله[1].

ولقد كثر أتباع الباجريقي بدعوته في مصر والشام والعراق واجتمع عليه الأشياع، وكان نصيبهم مثله المحاكمة، يقول ابن الوردي في حوادث سنة 741 هـ /1341م :" وفيها: ضربت رقبة عثمان الزنديق بدمشق على الألحاد والباجريقية سمع منه من الزندقة ما لم يسمع من غيره لعنه الله" [2]، فهل أصبحت الباجريقية مذهباً وله أتباع؟ لعل هذا ما يظهر من خلال النص.

ومن أتباع الباجريقي ظهر ابن المرحل[3]، فيقول عنه المقريزي : أنه درّس في الزاوية بجامع عمرو، وكان ممن اتّهم في دينه كالباجريقي والطوفي، وقد تعارضت آراؤه مع آراء ابن تيمية[4]، وذكر ابن العماد الحنبلي في ترجمة ناصر بن أبي الفضل الهيتي (ت726 هـ /1326م) ما نصّه: " اجتمع بمحلولي العقيدة، مثل ابن المعمار، والباجر بقي، والنّجم بن خلّكان، فانحلّت عقيدته، وتزندق من غير علم، فشُهد عليه، فهرب إلى بلاد الرّوم، ثم قدم حلب، واجتمع بالشيخ كمال الدّين ابن الزّملكاني، فأكرمه، واستتابه ثم ظهر منه زندقة عظيمة، فسيّره إلى دمشق فضربت عنقه" [5]، أما النجم بن خلكان " ابن أخي قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان، فقد ولي القضاء ببعض البلاد الشامية، ونُسب إلى انحلال في العقيدة، فانقطع رزقه ومقت، فسافر للديار المصرية، وقعد مع

([1]) النويري، نهاية الأرب، ج32، ص66-67. الكتبي، فوات الوفيات، ج3، ص398.

([2]) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج2، ص319.

([3]) صدر الدين بن الوكيل المعروف بابن المرحل درس بدمشق وبالقاهرة أفتى وعمره اثنتان وعشرون سنة كان يشتغل بالفقه والتفسير ولي مشيخة دار الحديث الأشرفية (ت716 هـ /1316م). الكتبي، فوات الوفيات، ج4، ص13-27. ابن قاضي شهبه، طبقات الشافعية، ج2، ص233-234. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص233.

([4]) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج2، ص489.

([5]) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج8، ص133.

الشهود حتى مات سنة 762 هـ /1362م، بما معنى أن مصر قد أصبحت ملجأً للمتصوفة، ويُذكر أن ابن خلكان خدع السلطان وأوهمه، بمقدرته على عمل الطلاسم والسحر، ولكنه عجز عن ذلك حين طُلب منه، ومع ذلك مصراً على دعواه[1].

وفي سنة 715هـ/1315م قُتل أحمد الرويس الأقباعي الصوفي في دمشق لاستحلاله المحارم وتعرضه للنبوة وكان له كشف وأخبار عن المغيبات، فضل به الجهلة وكان يأكل الحشيشة ويترك الصلاة [2].

ويستمر الصراع بين الطرفين مع الصوفي ابن اللبّان[3] فكان صوفياً من أصحاب ياقوت العرش الشاذلي وقد قال فيه المقريزي: " أنه نسبت إليه عظائم: منها أنه قال في ميعاده بجامع مصر إن السجود للصنم غير محرم وأنه يفضل الشيخ ياقوت العرش شيخه على بعض الصحابة، وشهد عليه بها. واستؤذن السلطان عليه فمكن منه فترامى على الأمير جنكلي بن البابا والأمير الحاج آل ملك والأمير أيدمر الخطير حتى حكم بتوبته ومنع من الوعظ هو والشيخ زكي الدين إبراهيم بن معضاد الجعبري وجماعة من الوعاظ"[4].

([1]) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج3، ص249.

([2]) الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت748هـ/1347م) العبر في خبر من غبر ط1، ج4، دار الكتب العلمية، بيروت 1985 ص41. اليافعي، عبد الله بن أسعد (ت768هـ /1367م) مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ط1، ج4، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت 1997 ص191. ابن العماد، شذرات الذهب، ج8، ص65.

([3]) محمد بن أحمد بن عبد المؤمن الإسعردي الدمشقي، مفسر، من علماء العربية، ولد ونشأ بدمشق، واستقر وتوفي بمصر، من كتبه ألفية في النحو، وديوان خطب (ت749 هـ /1348م). ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج5، ص60.

([4]) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج3، ص212.

ويبقى هذا الصراع كما أسلفنا بين الطرفين، وإنما أردت في هذا الإضافات أن أبين مقدار تغلغل الصوفية في المجتمع المصري في العصر المملوكي، وهذا الأمر ينسحب على المجتمع الشامي كذلك.

الفصل الثالث

المؤسسات الصوفية

المبحث الأول: الخوانق

أقام المتصوفة في أمكنة أخذت التسميات التالية، الأربطة، والزوايا، والخوانق، فالرباط، مفردها ربط، والرباط من المرابطة أي ملازمة ثغر العدو وأصلها أن يربط كل واحد من الفريقين خيله، ثم صار الثغر رباطاً، وربما سميت الخيل أنفسها رباطاً[1]، أما اصطلاحاً فان الرباطات هي المدن التي يرابط فيها المسلمون للجهاد في سبيل الدفاع عن الوطن وحماية الدعوة الإسلامية في دار الإسلام، وفي العصور الإسلامية المتأخرة، تحولت هذه الكلمة عن مفهومها العسكري حتى أصبحت تعني نفس ما تعنيه كلمة الزاوية والخانقاه[2].

وقد قرن شهاب الدين السهروردي بين المعنى اللغوي للرباط والمعنى الصوفي فقال: (وأصل الرباط ما يربط فيه الخيول ثم قيل لكل ثغر يدفع أهله عمن وراءهم رباط، فالمجاهد المرابط يدفع عمن وراءه ، والمقيم في الرباط على طاعة الله يدفع به وبدعائه البلاء عن العباد والبلاد)[3]، ولم يكن في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم غزو يربط فيه الخيل ، ولكن الرباط حينها كان انتظار الصلاة بعد الصلاة فالرباط جهاد النفس[4] ، والرباط هو بيت الصوفية ومنزلهم وقد شابهوا أهل

([1]) المطرزي، ناصر بن عبد السيد (ت610 هـ /1213م) المغرب في تشكيل المعرب، تحقيق محمود فاخوري وعبد الحميد مختار، حلب، سوريا 1979 ص316 . ابن منظور، لسان العرب، ج7، ص302.

([2]) المقريزي، الخطط، ج3، ص600. ماوريس، ديلافوس، الرباط، دائرة المعارف الإسلامية، ج10، ص19-24. الولي، الشيخ طه، المدينة في الإسلام، مجلة الاجتهاد، ج6، دار الاجتهاد، بيروت 1990، ص62 .

([3]) السهروردي، عوارف المعارف، ص66.

([4]) السهروردي، عوارف المعارف، ص66.

الصفة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم[1].إذن يظهر أن الرباط نشأ من أجل جهاد العدو وارتباط الخيل وإعدادها ولكن أصبح يشار له لاحقاً أنه مكان لإقامة الصوفية، أما الزاوية لغةً فهي مأخوذة من فعل زوى وانزوى، بمعنى تنحى وابتعد وانعزل[2]، ثم أصبحت تطلق على الدار الصغيرة التي تتسع لأشخاص قليلين يقيمون فيها في الغالب للعبادة وهي أصغر من الرباط، وربما كانت جزءاً منها حيث كانت تعد لإقامة بعض الصوفية والفقراء والأيتام وغيرهم[3] ، وأصبحت الزاوية مرادفة لكلمتي خانقاه ورباط[4]، ونرى هنا أن اسم "الزاوية" جاء لأن الذين أقاموا فيها اختاروا الانزواء والابتعاد عن البشر، أما الخانقاه فهي كلمة فارسية ومعناه في الأصل المائدة، وهو المكان الذي يأكل فيه الملك[5]، كما أنها تعني محلاً للتعبد والزهد والبعد عن الناس، قال السمعاني: (هي بقعة يسكنها أهل الخير) [6]، وتعني أيضاً البيت، ودخلت هذه الكلمة للعربية منذ انتشار التصوف في الإسلام [7]، وقيل سميت بهذا الاسم (خانقاه) من الخنق لتضييق الصوفية على أنفسهم[8].

([1]) المقريزي، الخطط، ج4، ص280.

([2]) ابن منظور، لسان العرب، ج14، ص363.

([3]) حمزة، عبد اللطيف، الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، ط8، دار الفكر العربي، القاهرة 1968 ص105 .

([4]) بروفنسال، ليفي ، زاوية، دائرة المعارف الإسلامية، ج10، ص331-333.

([5]) المقريزي، الخطط، ج4، ص302.

([6]) السمعاني، الأنساب، ج5، ص27.

([7]) دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص66. النباهين، علي سالم، نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك في مصر، ط1، دار الفكر العربي، بيروت 1981 ص264 .

([8]) حنفي، عبد المنعم، معجم مصطلحات الصوفية، ط1، دار المسيرة، بيروت 1980 .

ولا يخفى أن هناك خلط بين مهمة كل من الزاوية والرباط والخانقاه، وأفضل من ميز بينها ابن طولون في كتابه القلائد الجوهرية، فالخانقاه اسم لدار الصوفية ينقطعون فيه للعزلة والعبادة[1]، والربط هي المسبل للأعمال الصالحة، وقد اشتهر أنها تكون في البراري، وغلب عليها أن تكون للعجائز والأرامل والنساء[2]، أما الزوايا فهي المصلى الصغير الذي يقيم فيه أحد الشيوخ أو الأولياء[3]، وكان لكل من الرباط والزاوية والخانقاه شيخ مهمته الإشراف على المكان واستقبال المريدين الذين التحقوا بالرباط والخانقاه، وتدريبهم والتواصل معهم كل على قدر استيعابه وفهمه، وأن لا يتلفظ بألفاظ جديدة، على المريد لأن في ذلك تنفير له، بل يبدأ معه بالتدريج المتواتر من الأذكار[4].

وعلى الشيخ أن يتحلى بصفات مميزة فهو كما يقولون: (والمشايخ بالزوايا أليق لما تدعو إليه النفس من النوم والراحة، والاستبداد بالحركات والسكنات ووجود الشيخ بين الجماعة يضبطهم ويقوم بخدمة المبتدئين...) [5]، وعليه تهيئة الطعام للواردين والمجتازين ومؤانستهم عند قدومهم بحيث يزول خجل الغربة عنهم ويستحسن إفراد مكان (منعزل) للوارد الجديد لئلا يستحي[6].

([1]) ابن طولون، القلائد الجوهرية، ج1، ص283.

([2]) ابن طولون، القلائد الجوهرية، ج1، ص283-359.

([3]) العلبي، أكرم حسن، خطط دمشق، ط1، دار الطباع 1989، ص390-391 .

([4]) السبكي، معيد النعم، ص97.

([5]) حنفي، معجم مصطلحات الصوفية، ص109.

([6]) السبكي، معيد النعم، ص126.

وهناك الخادم ومهمته تأمين الراحة للنزلاء، والسهر على خدمتهم لأنه بذلك يكون في حال عبادة، وعليه المحافظة على أوقاف الرباط فلا يرمي شيئاً مما فضل أو زاد من طعام أو نحوه، ومن مهماته أيضاً المحافظة على النظافة[1].

وكانت العادة أن يخصص للقادم الجديد مكان ينفرد فيه عن الجماعة حتى يتعلم النظام ويتم تدريبه على مراسمه وكانت عادة فقراء الصوفية[2]، حلق الرؤوس وتقصير اللباس ولبس الصوف[3]، أما لباس الصوفية فهو اللباس الخشن (الصوف) والمرقع وقد فضلوا لبس الصوف وكان شارة الزهد، وقد جعله الفقيه أبو حامد الغزالي (ت505هـ/1111م) [4] من صفات من يصرف إليهم ما يوصى به للصوفية، وقد كره بعض شيوخ الصوفية لبس المرقعة خوفاً من طوارق الرياء، ومن التعرض للسؤال، وكان نزعها من علامات الإقبال على الدنيا[5].

كما لبسوا الدلق مع عمامة لطيفة يرخى منها عذبة[6] قصيرة من الأمام[7]، وقد أورد لنا المؤرخ الصفدي وصفاً لأحد رجال الصوفية، ويمكن من خلالها رسم صورة تقريبية للباس الصوفية

([1]) السبكي، معيد النعم، ص126.

([2]) سلام، الأدب في العصر المملوكي، ص258.

([3]) أطلق الصوفية على أنفسهم اسم الفقراء وعلى اعتبار أن من يدخل الخانقاه يدخلها للتعبد وليس حباً بجمع المال والتلذذ بأمور الدنيا. النعيمي، الدارس، ج2، ص109. العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص200.

([4]) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي فيلسوف متصوف له مئتي مصنف مولده ووفاته في طوس بخراسان، رحل إلى نيسابور ثم إلى العراق والحجاز والشام ومصر نسبته إلى صناعة الغزل أو إلى غزالة من طوس (ت505 هـ /1111م) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص216-218. الذهبي، سير أعلام النبلاء ج19، ص329-342.

([5]) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت505 هـ /1111م) إحياء علوم الدين، ج3، دار المعرفة، بيروت 1970 ص297-298 . العليمي. الأنس الجليل، ج2، ص160، السهروردي، عوارف المعارف، ص127

([6]) عَذَبَةُ كل شيء طرفه. ابن سيده، علي بن إسماعيل (458 هـ /1066م) المحكم والمحيط الأعظم، ط1، ج2، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت 2000 ص85 . الزبيدي، تاج العروس، ج1، ص98.

([7]) الأدفوي، الموفي بمعرفة التصوف، ص47.

فقال: (شيخ مسن فقير، حرفوش، مكشوف الرأس منفوش الشعر، عليه دلق رقيق، بالي الخلقة رقيق، وقد تمكن منه الوسخ ونبت فيه ورسخ، قد جمعه من عدة زقاق، له مدفأة يستدفي بنارها)[1].

أما عن حياتهم داخل الخوانق والزوايا والربط فقد دونها ابن بطوطة في رحلتـــه فقـــال: (إن ترتيب أمورهم عجيب فقد كانوا يسيرون على نظام دقيق ففي الصباح يقدم خادم الزاوية لكل شخص ما يريده من الطعام كل على حدة، أما نوع الطعام المقدم فكان خبزاً ومرقـــة، ويقـــدم هـــذا الطعـــام مرتين، ومن الشروط المتبعة في هذه المؤسسات الالتزام بحضور الصلوات الخمس، والمبيـــت فـــي الزاوية ومن عوائدهم أن يجلس كل واحد منهم على سجادة خاصة)[2].

ونستطيع أن نجزم بأن ما أورده ابن بطوطة لا يعدو كونه وصفاً ظاهرياً ربما نقله أو ســـمعه من أحدهم، إذ إن المؤسسات الصوفية حظيت باهتمام سلطاني واسع وأوقاف ضخمة فـــلا يعقـــل أن تكون الخوانق بهذا الشكل الذي يمكننا أن نعده شحيحاً.

([1]) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج17، ص371.

([2]) ابن بطوطة، تحفة النظار، ج1، ص26.

الخوانق في مصر:

1- **خانقاه ركن الدين بيبرس:** وهي أجلّ خانقاه بالقاهرة بنياناً، وأوسعها مقداراً وأتقنها صنعةً، بناها الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصوريّ قبل أن يلي السلطنة، وهو أمير، فبدأ في بنائها في سنة 706هـ/1306م، وبنى بجانبها رباطاً كبيراً يتوصل إليه من داخلها، وجعل بجانب الخانقاه قبة بها قبره، ولهذه القبة شبابيك تشرف على الشارع المسلوك فيه من رحبة باب العيد إلى باب النصر، من جملتها الشباك الكبير الذي حمله الأمير أبو الحارث البساسيري[1] من بغداد[2].

ولما شرع في بنائها رفق بالناس ولا طفهم ولم يعسف فيها أحداً في بنائها ولا أكره صانعاً ولا غصب من آلاتها شيئاً، وإنما اشترى دار الأمير عز الدين الأفرم التي كانت بمدينة مصر، واشترى دار الوزير هبة الله بن صاعد الفائزي، وأخذ ما كان فيهما من الأنقاض، واشترى أيضا دار الأنماط التي كانت برأس حارة الجودرية من القاهرة ونقضها وما حولها، واشترى أملاكاً كانت قد بنيت في أرض دار الوزارة من ملاكها بغير إكراه وهدمها، فكان قياس أرض الخانقاه والرباط والقبة نحو فدّان وثلث[3].

([1]) أرسلان بن عبد الله، أبو الحارث البساسيري، كان من مماليك بني بويه، وخدم القائم العباسي فقدمه على جميع الأتراك في بغداد وقلده الأمور بأسرها، وخطب له على منابر العراق وخوزستان، فعظم أمره وهابته الملوك، وتلقب بالمظفر، ثم خرج على القائم وأخرجه من بغداد، وخطب للمستنصر الفاطمي صاحب مصر سنة 450 هـ/1058م وأخذ له بيعة القضاة والأشراف ببغداد قسرا. ولم يثق به المستنصر فأهمل أمره، فتغلب عليه أعوان القائم، من عسكر السلطان طغرلبك، فقتلوه سنة 451ه/1060م

([2]) المقريزي، الخطط، ج4، ص285.

([3]) المقريزي، الخطط، ج4، ص285.

وكان تحت الخانقاه مغارة كبيرة تحت الأرض، وقد وجدوا فيها رخام جليل القدر عظيم الهيئة، فيه ما لا يوجد مثله لعظمه، فنقله من المغارة ورخّم منه الخانقاه والقبة وداره التي بالقرب من البندقانيين وحارة زويلة[1].

2- **الخانقاه الجمالية:** بناها الأمير الوزير مغلطاي الجمالي[2] في سنة 780هـ/1378م[3]، وهي بجوار درب راشد من القاهرة على باب الزقاق المعروف قديماً بدرب سيف الدولة نادر، وولى تدريسها ومشيخة التصوّف بها الشيخ علاء الدين عليّ بن عثمان التركماني الحنفي[4].

3- **الخانقاه المهمندارية:** بناها الأمير شهاب الدين أحمد بن أقوش العزيزي المهمندار[5]، ونقيب الجيوش في سنة 725 هـ /1325م[6].

4- خانقاه بشتاك: هذه الخانقاه خارج القاهرة على جانب الخليج من البرّ الشرقي تجاه جامع بشتاك، أنشأها الأمير سيف الدين بشتاك الناصري، وكان فتحها أوّل يوم من ذي الحجة سنة 736ه/1335م، واستقرّ في مشيختها شهاب الدين القدسي، وقد نسب إليها جماعة منهم الشيخ الأديب البارع بدر الدين محمد بن إبراهيم المعروف بالبدر البشتكي[7].

([1]) المقريزي، الخطط، ج4، ص285.

([2]) الأمير علاء الدين الناصري الجمالي، المعروف أولاً بمغلطاي خُرُزْ، كان من أكبر مماليك السلطان الملك الناصر محمد، أمير مئة مقدم ألف (ت هـ 730/1330م). الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك(ت764هـ/1362م) أعيان العصر وأعوان النصر، ط1، ج5، تحقيق علي ابو زيد وآخرون، دار الفكر، بيروت 1998 ص432.

([3]) المقريزي، الخطط، ج4، ص288.

([4]) المقريزي، الخطط، ج4، ص246.

([5]) هو الذي يتصدى لتلقي الرسل والعربان الواردين على السلطان وينزلهم دار الضيافة ويتحدث في القيام بأمرهم. القلقشندى، صبح الأعشى،ج5، ص431-432.

([6]) المقريزي، الخطط، ج4، ص257.

([7]) المقريزي، الخطط، ج4، ص288.

5- **الخانقاه البندقدارية:** أنشأها الأمير علاء الدين أيدكين البندقداري الصالحي النجميّ، ورتب فيها صوفية وقرّاء في سنة 683 هـ /1284م، وهذه الخانقاه بالقرب من الصليبة، كان موضعها يعرف بدويرة مسعود، وهي تجاه المدرسة الفارقانية وحمّام الفارقاني[1].

6- **خانقاه شيخو:** هذه الخانقاه في خط الصليبة خارج القاهرة تجاه جامع شيخو، أنشأها الأمير الكبير سيف الدين شيخو العمري في سنة 756 هـ /1355م، ومن شيوخها أكمل الدين محمد بن محمود في مشيخة الخانقاه، ومدرّس الحنفية، وجعل إليه النظر في أوقاف الخانقاه[2].

7- **الخانقاه الجاولية:** أنشأها الأمير علم الدين سنجر الجاولي في سنة 723 هـ /1323م، وهي على جبل يشكر بجوار مناظر الكبش، فيما بين القاهرة ومصر[3].

8- **خانقاه الجيبغا المظفري:** هذه الخانقاه خارج باب النصر فيما بين قبة النصر وتربة عثمان بن جوشن السعودي، أنشأها الأمير سيف الدين الجيبغا المظفري، وكان بها عدّة من الفقراء يقيمون بها ولهم فيها شيخ، ويحضرون في كل يوم وظيفة التصوّف، ولهم الطعام والخبز[4].

9- **خانقاه سرياقوس:** خانقاه سرياقوس هذه الخانقاه خارج القاهرة من شماليها على نحو بريد منها، بأوّل تيه بني إسرائيل، بسماسم سرياقوس، أنشأها السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة 723 هـ /1323م وجعل فيها مائة خلوة لمائة صوفي، وبنى بجانبها مسجداً تقام به الجمعة، وبنى بها حمّاماً ومطبخاً[5].

([1]) المقريزي، الخطط، ج4، ص291.

([2]) المقريزي، الخطط، ج4، ص292.

([3]) المقريزي، الخطط، ج4، ص292.

([4]) المقريزي، الخطط، ج4، ص292-293.

([5]) المقريزي، الخطط، ج4، ص293-294.

10- **خانقاه أرسلان:** هذه الخانقاه فيما بين القاهرة ومصر من جملة أراضي منشأة المهراني، أنشأها الأمير بهاء الدين أرسلان بهاء الدين الدوادار الناصريّ سنة 709 هـ /1309م [1].

11- **خانقاه بكتمر:** هذه الخانقاه بطرف القرافة في سفح الجبل مما يلي بركة الحبش، أنشأها الأمير بكتمر الساقي سنة 726 هـ /1326م، وأوّل من استقرّ في مشيختها الشمسيّ شمس الدين الرومي[2].

12- **خانقاه قوصون:** هذه الخانقاه في شماليّ القرافة مما يلي قلعة الجبل تجاه جامع قوصون، أنشأها الأمير سيف الدين قوصون، وكملت عمارتها في سنة 736 هـ /1335م، وقرّر في مشيختها الشيخ شمس الدين أبا الثناء محمود بن أبي القاسم أحمد الأصفهاني[3].

13- **خانقاه أمّ أنوك:** هذه الخانقاه خارج باب البرقية بالصحراء، التي أنشأتها الخاتون[4] طغاي تجاه تربة الأمير طاشتمر الساقي، فجاءت من أجلّ المباني، وجعلت بها صوفية وقرّاء، ووقفت عليها الأوقاف الكثيرة[5].

([1]) المقريزي، الخطط، ج4، ص296.

([2]) المقريزي، الخطط، ج4، ص296.

([3]) المقريزي، الخطط، ج4، ص298.

([4]) خواتين مفردها خاتون وهو لفظ تركي معناه السيدة. القلقشندى، صبح الأعشى،ج6، ص78. الباشا، الألقاب الإسلامية، ص264-265.

([5]) المقريزي، الخطط، ج4، ص299.

14- **خانقاه يونس:** هذه الخانقاه من جملة ميدان القبق بالقرب من قبة النصر خارج باب النصر، أنشأها الأمير يونس النوروزيّ الدوادار[1].

15- **خانقاه طيبرس:** هذه الخانقاه من جملة أراضي بستان الخشاب، فيما بين القاهرة ومصر على شاطئ النيل، أنشأها الأمير علاء الدين طيبرس الخازندار نقيب الجيوش في سنة 707 هـ /1307م[2].

16- **خانقاه أقبغا:** أنشأها الأمير علاء الدين أقبغا عبد الواحد أستادار الملك الناصر محمد بن قلاوون[3].

المبحث الثاني: الربط

1- **رباط الصاحب:** هذا الرباط مطل على بركة الحبش، أنشأه الصاحب فخر الدين أبو عبد الله محمد بن الوزير الصاحب بهاء الدين أبي الحسن علي بن محمد بن سليم بن حنا، ووقف عليه أبوه الصاحب بهاء الدين بعد موته عقاراً بمدينة مصر، وشرط أن يسكنه عشرة من الفقراء المجرّدين غير المتأهلين، وذلك سنة 668 هـ /1270م[4].

2- **رباط الفخري:** هذا الرباط خارج باب الفتوح فيما بينه وبين النصر، بناه الأمير عز الدين أيبك الفخري، أحد أمراء الملك الظاهر بيبرس[5].

([1]) المقريزي، الخطط، ج4، ص300.
([2]) المقريزي، الخطط، ج4، ص301.
([3]) المقريزي، الخطط، ج4، ص301.
([4]) المقريزي، الخطط، ج4، ص302.
([5]) المقريزي، الخطط، ج4، ص303.

3- **رباط البغدادية:** هذا الرباط بداخل الدرب الأصفر تجاه خانقاه بيبرس، بنته الست الجليلة تذكارياي خاتون ابنة الملك الظاهر بيبرس في سنة 684 هـ /1285م، للشيخة الصالحة زينت ابنة أبي البركات، المعروفة ببنت البغدادية، فأنزلتها به ومعها النساء الخيرات[1].

4- **رباط الست كليلة:** هذا الرباط خارج درب بطوط من جملة حكر سنجر اليمني، وقفه الأمير علاء الدين البراباه على الست كليلة، المدعوّة دولاي، ابنة عبد الله التتارية، زوج الأمير سيف الدين البرلي السلاحدار الظاهري، وجعله مسجداً ورباطاً، ورتب فيه إماماً ومؤذناً، وذلك سنة 694 هـ /1295م[2].

5- **رباط رواق ابن سليمان:** هذا الرواق بحارة الهلالية خارج باب زويلة، عرف بأحمد بن سليمان بن أحمد بن سليمان بن إبراهيم بن أبي المعالي بن العباس الرحبي البطائحي الرفاعي، شيخ الفقراء الأحمدية الرفاعية بديار مصر، ولم يرد التاريخ الذي بني فيه هذا الرباط[3]، ولكن لأن تاريخ وفاة ابن سليمان كانت سنة 691 هـ /1293م عندئذ يثبت أنه بني في العصر المملوكي الأول.

6- **رباط داود بن إبراهيم:** هذا الرباط بخط بركة الفيل بني في سنة 663 هـ /1265م[4].

([1]) المقريزي، الخطط، ج4، ص303.

([2]) المقريزي، الخطط، ج4، ص303.

([3]) المقريزي، الخطط، ج4، ص304.

([4]) المقريزي، الخطط، ج4، ص304.

7- **رباط ابن أبي المنصور:** هذا الرباط نسبةً للشيخ صفي الدين الحسين بن علي بن أبي المنصور الصوفي المالكي، المتوفى سنة 682 هـ /1283م[1].

8- **رباط الأفرم:** أنشأه الأمير عز الدين أيبك الأفرم أمير خازندار الصالحيّ النجميّ، بسفح الجرف المشرف على بركة الحبش، ورتب فيه صوفية وشيخاً وإماماً وذلك في سنة 663 هـ /1265م[2].

9- **الرباط العلائي:** هذا الرباط خارج مصر بخط بين الزقاقين شرقي الخليج الكبير، أنشأه الملك علاء الدين أبو الحسن علي بن الملك المجاهد سيف الدين إسحاق صاحب الجزيرة[3].

([1]) المقريزي، الخطط، ج4، ص304.

([2]) المقريزي، الخطط، ج4، ص305.

([3]) المقريزي، الخطط، ج4، ص306-307.

الزوايا:

1- **زاوية الدمياطي:** هذه الزاوية فيما بين خط السبع سقايات وقطنرة السدّ خارج مصر إلى جانب حوض السبيل المعد لشرب الدواب، أنشأها الأمير عز الدين أيبك الدمياطي الصالحيّ النجميّ، أحد الأمراء المقدّمين الأكابر في أيام الملك الظاهر بيبرس[1].

2- **زاوية الشيخ خضر:** هذه الزاوية خارج باب الفتوح من القاهرة بخط زقاق الكحل. تشرف على الخليج الكبير، عرفت بالشيخ خضر بن أبي بكر بن موسى المهراني العدوي، شيخ السلطان الملك الظاهر بيبرس[2].

3- **زاوية الظاهري:** هذه الزاوية خارج باب البحر ظاهر القاهرة عند جمّام طرغاي على الخليج الناصري، بناها أحمد بن محمد عبد الله أبو العباس جمال الدين الظاهري[3].

4- **زاوية الجميزة:** هذه الزاوية موضعها من جملة أراضي الزهري، أنشأها الأمير سيف الدين جيرك السلاحدار المنصوري أحد أمراء الملك المنصور قلاوون، في سنة 682 هـ /1283م، وجعل فيها عدة من الفقراء الصوفية[4].

5- **زاوية الحلاوي:** هذه الزاوية بخط الأبارين من القاهرة بالقرب من الجامع الأزهر، أنشأها الشيخ مبارك الهندي السعودي الحلاوي، أحد الفقراء من أصحاب الشيخ أبي السعود بن أبي العشائر الباريني الواسطي في سنة 688 هـ /1289م[5].

([1]) المقريزي، الخطط، ج4، ص307.

([2]) المقريزي، الخطط، ج4، ص307.

([3]) المقريزي، الخطط، ج4، ص309.

([4]) المقريزي، الخطط، ج4، ص309.

([5]) المقريزي، الخطط، ج4، ص309.

6- **زاوية نصر:** هذه الزاوية خارج باب النصر من القاهرة، أنشأها الشيخ نصر بن سليمان أبو الفتح المنبجي الناسك القدوة[1].

7- **زاوية تقي الدين:** هذه الزاوية تحت قلعة الجبل، أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاوون بعد سنة 720 هـ /1320م، لسكنى الشيخ تقي الدين رجب بن أشيرك العجمي[2].

8- **زاوية الشريف مهدي:** هذه الزاوية بجوار زاوية الشيخ تقي الدين المذكور سابقاً، بناها الأمير صرغتمش في سنة 753 هـ /1352م[3].

9- **زاوية الطراطرية:** هذه الزاوية بالقرب من موردة البلاط، بناها الملك الناصر محمد بن قلاوون بوساطة القاضي شرف الدين النشو ناظر الخاص برسم الشيخين الأخوين محمد وأحمد المعروفين بالطراطرية، في سنة 740 هـ /1339م[4].

10- **زاوية القلندرية:** هذه الزاوية خارج باب النصر من القاهرة، أنشأها الشيخ حسن الجوالقي القلندري، أحد فقراء العجم القلندرية ، ولما قدم إلى ديار مصر تقدم عند أمراء دولة المماليك البحرية[5].

([1]) المقريزي، الخطط، ج4، ص310.

([2]) المقريزي، الخطط، ج4، ص310.

([3]) المقريزي، الخطط، ج4، ص310.

([4]) المقريزي، الخطط، ج4، ص310.

([5]) المقريزي، الخطط، ج4، ص311.

11- زاوية الركراكي: هذه الزاوية خارج القاهرة في أرض المقس، عرفت بالشيخ المعتقد أبي عبد الله محمد الركراكي المغربي المالكي، لإقامته بها، وكان فقيهاً مالكياً متصدّياً لأشغال المغاربة، يتبرّك الناس به إلى أن مات بها سنة 794 هـ /1392م[1].

12- زاوية إبراهيم الصائغ: هذه الزاوية بوسط الجسر الأعظم تطل على بركة الفيل، عمرها الأمير سيف الدين طغاي بعد سنة 720 هـ /1320م، وأنزل فيها فقيراً عجمياً من فقراء الشيخ تقي الدين رجب يعرف بالشيخ عز الدين العجمي[2].

13- زاوية أبي السعود: هذه الزاوية خارج باب القنطرة من القاهرة على حافة الخليج، وهي منسوبة للشيخ المبارك أيوب السعودي (ت724 هـ /1324م) [3].

14- زاوية الحمصي: هذه الزاوية خارج القاهرة بخط حكر خزائن السلاح، أنشأها الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير فخر الدين الطنبغا الحمصي، أحد الأمراء في الأيام الناصرية، رتب بهذه الزاوية عشرة من الفقراء شيخهم منهم، وتاريخ وقفها سنة (709 هـ /1309م) [4].

15- زاوية الجاكي: هذه الزاوية في سويقة الريش خارج القاهرة بجانب الخليج الغربي، منسوبة للشيخ المعتقد حسين بن إبراهيم بن علي الجاكي (ت733 هـ /1333م)[5].

([1]) المقريزي، الخطط، ج4، ص312.

([2]) المقريزي، الخطط، ج4، ص312.

([3]) المقريزي، الخطط، ج4، ص313.

([4]) المقريزي، الخطط، ج4، ص313.

([5]) المقريزي، الخطط، ج4، ص314.

16- زاوية الأبناسي: هذه الزاوية بخط المقس، منسوبة للشيخ الفقيه إبراهيم بن حسين بن موسى بن أيوب الأبناسي الشافعي (ت802 هـ /1399م)، الذي قدم من الريف وبرع في الفقه، وعرف بالخير والصلاح، ودرس بالجامع الأزهر وغيره، وولي مشيخة الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء[1].

17- زاوية اليونسية: هذه الزاوية خارج القاهرة بالقرب من باب اللوث تنزلها الطائفة اليونسية، ومن أشهر شيوخها يونس بن يونس بن مساعد الشيباني، ثم المخارقي شيخ الفقراء اليونسية، شيخ صالح له كرامات مشهورة، ولم يكن له شيخ بل كان مجذوباً جذب إلى طريق الخير توفي بأعمال دارا في سنة (719 هـ /1319م) [2].

18- زاوية الخلاطي: هذه الزاوية خارج باب النصر من القاهرة، من أشهر شيوخها ناصر الدين محمد بن علاء الدين علي الخلاطي (ت733 هـ /1333م) [3].

19- زاوية السدّار: هذه الزاوية برأس حارة الديلم، بناها الفقير المعتقد علي بن السدّار في سنة 770 هـ /1369م، وتوفي بعد ذلك بثلاث سنوات 773 هـ /1371م[4].

ويجب الإشارة إلى أنه لكل زاوية أو خانقاه أو رباط شيخ يرجع إليه في أمور جماعته وأتباعه، ويتولى منصبه بتوقيع من السلطان [5]، ومن مهامه الاهتمام برواد الخانقاه وروادها كما عليه تربية

([1]) المقريزي، الخطط، ج4، ص314.

([2]) المقريزي، الخطط، ج4، ص314-315.

([3]) المقريزي، الخطط، ج4، ص315.

([4]) المقريزي، الخطط، ج4، ص316.

([5]) العليمي، أبو اليمن عبد الرحمن بن محمد (ت928 هـ /1521م) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج2، دار المحتسب، عمان 1973 ص327.

المريدين العدل في المعاملة بينهم دون تمييز[1]، أما الناظر فهو الذي يدير شؤونها واحتياجاتها من لوازم[2]، وهناك مباشر الوقف الذي عليه أن يشرف على وقف الخانقاه وتنميته وعمل الحساب له[3]، وكان هؤلاء جميعاً تحت إمرة شيخ الشيوخ[4]، وشيخ الشيوخ لقب يطلق على متولي الإشراف على رجال الطرق الصوفية، وهو أعلى مرتبة في الخوانق والزوايا والربط، وقد حظي بمكانة اجتماعية مرموقة ولم يكن يقل دوره عن دور القضاة وكبار العلماء فكان حلقه اتصال بين الصوفية والسلطان، وكان للصوفية مكانة خاصة في نظر الدولة إذ إن باستطاعتهم أن يخلقوا مشاكل للدولة[5].

وكان على شيخ الشيوخ أن يشرف على الخوانق والفقراء والاعتناء بما تحتاجه هذه الخوانق وعليه أن يحث الشيوخ على إتباع سنة الله ورسوله في جميع أعمالهم وأن يستقبل الوفود التي ترده من السلطان ويقوم بإكرامهم وتنفيذ مطالبهم، وأن يستقبل كل مسافر ويساعده بما يحتاج إليه[6]، وجرت العادة أن يكون شيخ الخانقاه السميساطية بدمشق هو من يتولى وظيفة مشيخة الشيوخ وتكون ولايتها من النائب وبتوقيعه[7].

([1]) السبكي، تاج الدين عبد الوهاب(ت771 هـ /1369م) معيد النعم ومبيد النقم، ط1، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت 1986 ص124.

([2]) البصروي، علاء الدين علي بن يوسف(ت 905 هـ /1500م) تاريخ البصروي، صفحات مجهولة من تاريخ دمشق في عصر المماليك، تحقيق أكرم العلبي، ط1، دار المأمون للتراث 1988،، ص242.

([3]) بدران، عبد القادر (ت1346 هـ /1927م)، منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت 1985ص293.

([4]) العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص181.

([5]) القلقشندي، صبح الأعشى، ج12، ص409.

([6]) العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص181-185.

([7]) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص200.

ويبدو أنه لا أهمية للعمر في تعيين شيخ الشيوخ سواء كان كبيراً أو صغيراً لكن العبرة بقدرة ذلك الشخص ومكانته ومقامه بين الناس ويتم التعيين بأمر السلطان المملوكي[1]، وكان النظر على أوقاف الصوفية يُسند في الأغلب إلى شيخ الشيوخ[2]. ويذكر في هذا المقام أن لقب شيخ الشيوخ كان يطلق حصراً في العهد الأيوبي على شيخ خانقاه سعيد السعداء[3] التي بناها صلاح الدين الأيوبي في القاهرة سنة (569هـ/1173م)[4].

وفي العهد المملوكي كان هناك مشيخة للشيوخ في بلاد الشام وأخرى في مصر، وأحياناً كانت مشيخة الشيوخ في بلاد الشام تتبع لشيخ الشيوخ في مصر، فالسلطان الناصر محمد قلاوون أصدر مرسوماً بتقليد الشيخ نظام الدين الأصفهاني (ت783هـ/1381م)[5] مشيخة الشيوخ في مصر وبلاد الشام فقد خوله المرسوم الإشراف الإشراف على مواريث الصوفية وأوقافهم بحيث (لا يكون لأمين الحكم ولا لديوان المواريث معه في ذلك حديث.....ولا يكون لأحد من الحكّام ولا من جهة الحسبة ولا

([1]) ابن الحنبلي، رضي الدين محمد بن إبراهيم (ت971 هـ /1564م)، درر الحبب في أعيان حلب، ج2، ق1، تحقيق محمود الفاخوري، دمشق 1974 ص338.

([2]) بدران، منادمة الأطلال، ص277.

([3]) خانقاه سعيد السعداء أوقفها السلطان صلاح الدين بن أيوب، وكانت دارا لسعيد السعداء قنبر عتيق الخليفة المستنصر، فلما تملك الناصر صلاح الدين بالأمر، أوقفها على الصوفية في سنة (569 هـ /1173م) ورتب لهم كل يوم طعاماً ولحماً وخبزاً، وهي أول خانقاه عملت بديار مصر، ونعت شيخها بشيخ الشيوخ، وما زال ينعت بذلك إلى أن بنى الناصر محمد بن قلاوون خانقاه سرياقوس، فدعي شيخها بشيخ الشيوخ. المقريزي، الخطط، ج4، ص282. السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص260.

([4]) القلقشندي، صبح الأعشى، ج12، ص409.

([5]) نظام الدين اسحق بن عاصم بن سعد الدين الأصفهاني شيخ خانقاه سرياقوس (ت783 هـ /1381م). ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج11، ص217.

القضاة في ذلك حديث) [1]، وأحياناً يكون شيخ الشيوخ من الشام وليس من مصر فقد تولاها شرف الدين أبو بكر بن محمد الجويني(ت678هـ/1279م)[2].

المبحث الثالث: الطرق الصوفية

تعرف الطريقة بأنها الأسلوب الخاص الذي يعيش الصوفي بمقتضاه في ظل جماعة من جماعات الصوفية تابعةً لأحد كبار المشايخ، أو هي مجموعة التعاليم والآداب والتقاليد التي تختص بها جماعة من هذه الجماعات[3]، ونود الإشارة هنا إلى أن الطرق الصوفية كانت تشترك بمبادئ عامة مثل التوبة والورع والزهد والحب والمحبة والمعرفة والتوحيد والفناء، وزادوا على ذلك بالسكر والوجد والشطح والاتصال والاتحاد وغيرها، أما الطرق التي انتشرت في مصر في العصر المملوكي الأول فهي:

1- **طريقة السيد البدوي:** نسبةً إلى أحمد بن علي بن أبي بكر البدويّ، أصله من المغرب، ولد بفاس، وطاف البلاد وأقام بمكة والمدينة، ودخل مصر في أيام السلطان الظاهر بيبرس، فخرج لاستقباله هو وعسكره، وأنزله في درا ضيافته، وزار بلاد الشام والعراق سنة 634هـ/1236م وعظم شأنه في بلاد مصر فانتسب إلى طريقته جمهور كبير بينهم السلطان

([1]) القلقشندي، صبح الأعشى، ج11، ص368. حمادة، محمد ماهر ، دراسة وثقية للتاريخ الإسلامي ومصادره، ط1، بيروت ، مؤسسة الرسالة 1998 ص402-405 .

([2]) الذهبي، معجم الشيوخ، ج1، ص322. العبر، ج3، ص338. عبد الله بن عبد الله بن عمر بن علي محمد بن حمويه، شيخ الشيوخ شرف الدين أبو بكر بن شيخ الشيوخ تاج الدين الجويني الدمشقي الصوفي ، سمع من أبيه، ومن أبي القاسم بن صصرى، وأبي صادق، وابن صباح، وروى عنه: ابن الخباز، وابن العطار، والمزي، والبرزالي، وكان شيخاً جليلاً (ت678 هـ/1279م) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج7، ص92.

([3]) الرومي، التصوف الإسلامي، ص93.

الظاهربيبرس، وتوفي ودفن في طنطا حيث تقام في كل عام سوق عظيمة يفد إليها الناس من جميع أنحاء مصر احتفالاً بمولده، وكانت وفاته سنة (675 هـ /1276م)[1].

2- **الطريقة الشاذلية:** المنسوبة لأبي الحسن الشاذلي، وهو علي بن عبد الله بن عبد الجبار، ولد في بلاد " غمارة " بريف المغرب، ونشأ في بني زرويل (قرب شفشاون) وتفقه وتصوف بتونس، وسكن " شاذلة " قرب تونس، فنسب إليها، وطلب " الكيمياء "في ابتداء أمره، ثم تركها، ورحل إلى بلاد المشرق فحج ودخل بالعرق، ثم سكن الإسكندرية، وتوفي بصحراء عيذاب في طريقه إلى الحج، وكان ضريراً ينتسب إلى الأدارسة أصحاب المغرب، توفي سنة 656 هـ /1258م [2].

3- **الطريقة الدسوقية:** المنسوبة لإبراهيم بن أبي المجد بن قريش بن محمد، المولود سنة 633 هـ /1235م المتصل نسبه بالحسين بن علي، وهو من كبار المتصوفين، من أهل دسوق (بغربية مصر)، وقد تفقه على مذهب الشافعي في أوليته ثم اقتفى آثار الصوفية وكثر مريدوه ونقلوا عنه كلاما على طريقة القوم، وقدد توفي سنة 676 هـ /1277م[3].

هذه الطرق آنفة الذكر كانت في مصر، ولكن هناك طرق أخرى انتشرت في مصر وفي بلاد الشام أهمها:

([1]) الشعراني، الطبقات الكبرى، ج1، ص155.

([2]) الشعراني، الطبقات الكبرى، ج2، ص4. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج21، ص141.

([3]) الشعراني، الطبقات الكبرى، ج1، ص154.

أولاً: الطريقة القادرية: وهي منسوبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني (ت561هـ/1166م)[1]، وذكر الشعراني أن من خصائص الطريقة القادرية الذبول تحت مجاري الأقدار بموافقة القلب والروح، واتخاذ الباطن والظاهر وانسلاخه من صفات النفس، وقيل إن طريقته هي تجريد التوحيد مع الحضور في موقف العبودية[2]، وقد أثنى ابن تيمية على الشيخ عبد القادر الجيلاني واعتبره من ضمن أئمته فقد قال: (والذي نختار قول أئمتنا ومن متأخريهم الشيخ الإمام أبو محمد عبد القادر الجيلاني)[3]، فهو يتوافق في آرائه الفقهية مع آراء ابن تيمية.

ثانياً: الطريقة الرفاعية مؤسسها أحمد بن علي الرفاعي (ت578هـ/1182م) [4] .

ثالثاً: الطريقة البيانية نسبة لأبي البيان نبا بن محمد بن محفوظ القرشي (ت551هـ/1156م)[5].

رابعاً:الطريقة الأحمدية: وهي ذاتها الرفاعية المنسوبة لأحمد بن علي الرفاعي (ت578هـ/1182م) [6]، ومن هنا جاءت التسمية " الأحمدية " إلا أن أتباعها تميزوا بتصرفات أنكرها عليهم الفقهاء وكفروهم عليها فصنف ابن تيمية كتاب "كشف حال المشايخ الأحمدية وأحوالهم

([1]) عبد القادر بن موسى بن جنكي الحسني الجيلاني مؤسس الطريقة القادرية، انتقل إلى ببغداد واتصل بشيوخ العلم والتصوف وبرع في أساليب الوعظ وتصدى للتدريس والإفتاء في بغداد (ت561 هـ /1166م)، الكتبي، فوات الوفيات، ج2، ص373.

([2]) الشعراني، لوافح الأنوار في طبقات الأخيار، ج1، ص109 .

([3]) ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم (ت728 هـ /1327م)، مجموع الفتاوى، ط3، ج5، تحقيق أنور الباز وعامر الجزار، دار الوفاء، دمشق 2005، ص85 .

([4]) ابن كثير،البداية والنهاية، ج12، ص382 . أبو العباس أحمد الرفاعي، شيخ الطائفة الأحمدية الرفاعية البطائحية، التف علية خلق كثير (ت578 هـ /1182م) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص172.

([5]) أبو البيان نبا بن محمد بن محفوظ القرشي كان عالماً إماماً شافعي المذهب سلفي العقيدة، له مؤلفات كثيرة (ت551 هـ /1156م). الذهبي، تاريخ الإسلام، ج38، ص68 .

([6]) ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص381.

الشيطانية"[1] بين فيه أحوالهم ومسالكهم وتخيلاتهم وما في طريقتهم من مقبول ومردود بالكتاب[2] إذ أنكر عليهم دخولهم في النيران المشتعلة وأكلهم الحيات ولبسهم الأطواق الحديد في أعناقهم وتقلدهم بالسلاسل على مناكبهم وعمل الأساور الحديد في أيديهم وتلبيدها[3].

5- الطريقة اليونسية: وينسب هؤلاء للشيخ يونس بن يوسف الشيباني (ت620هـ/1223م) [4] الذي عرف عنه الشطح، والشطح كلمات يتكلمون بها ظاهرها مخالفة الشريعة[5]، ولكنهم عرفوا الشطح بما يبرر الكفر والزندقة التي يتلفظون بها، معتبرين أن ما قالوه هو في حالة سكر بما تجلى لهم من حقائق وبما عاينوا من علوم وزعموا أنها أسكرتهم وأفقدتهم صوابهم[6]، وعرف عنه أيضاً الشطارة وله أحوال ومقامات ومكاشفات[7]، وتعتبر الطريقة اليونسية أشد الطرق تطرفاً، فلهم أعمال أعمال تدل على الاستهتار والانحلال قولاً وفعلاً[8].

([1]) الكتبي، فوات الوفيات، ج1، ص83.

([2]) ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، 41.

([3]) المقريزي، السلوك، ص 251.

([4]) يونس بن يوسف بن مساعد الشيباني المخارقي، كان صاحب حال وكشف ويحكى عنه كرامات (ت620 هـ /1223م) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج7، ص256-257 .

([5]) قلعجي، معجم لغة الفقهاء، ص262.

([6]) اليوسف، عبد الرحمن بن عبد الخالق، الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، ط3، مكتبة ابن تيمية، الكويت 1986 ص305 .

([7]) الذهبي، العبر، ج3، ص180.

([8]) الذهبي، تاريخ الإسلام ، ج44، ص472. .

6- الطريقة القلندرية (الحيدرية): ومن شعارهم لبس الفراجي[1] والطراطير[2] وقص اللحى وترك وترك الشوارب، وهو خلاف السنة وهذا تأسياً بشيخهم حيدر الذي عرفت الطريقة باسمه فقيل لها(حيدرية)، فحين أسره منافسوه قصوا لحيته وتركوا شواربه فاقتدوا به في ذلك [3]، ومن هنا أطلق أطلق عليهم اسم (قلندرية) وهي كلمة أعجمية بمعنى المحلقين[4].

إن هذه الطرق لم لاقت تأييداً ولاقت من الطرف الآخر معارضة، فقد أُنكر عليهم المعارضون أنهم يجتمعون في الليالي على شكل حلقات ينشدون ويرقصون، وفي عرفهم أن السماع يولد حالة في القلب تسمى الوجد، وهذا بدوره يحرك أعضاء البدن، فإن كانت الحركات غير موزونة كانت اضطرابات، وإن كانت موزونة فحينئذ تكون تصفيقاً ورقصاً[5].

ويعتبر أحمد بن عثمان الشرنوبي (ت994هـ/1585م)[6] أن السماع لا بأس به، وحجته في في ذلك أن سفيان الثوري وذا النون المصري وشيخ الشيوخ صدر الدين محب كانوا يحبون السماع ولم ينكروه، ويضع للسماع شروط أهمها أن يكونوا في مكان لا يطلع عليهم فيه غيرهم، وأن يكون بغير أجرة، وأن لا يكون معهم شبان، وأن يكون سماعهم مع السكوت والأدب لا مع الحركة والرقص وضرب الأرض بالأقدام[7].

([1]) الفراجي جمع الفرجية وهي الثوب الواسع الطويل الأكمام يتزيا به علماء الدين. مصطفى، المعجم الوسيط، ج2، ص679.

([2]) الطراطير جمع الطرطور وهي القلنسوة الطويلة الدقيقة الرأس. الرازي، مختار الصحاح، ج1، ص189.

([3]) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج48، ص29.

([4]) زناتي، معجم مصطلحات التاريخ، ص321.

([5]) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج2، ص270.

([6]) أحمد بن عثمان الشرنوبي فاضل من المتصوفة له شعر رحل إلى بلاد الروم رحلتين توفي في ثانيتهما، أملى على تلميذ له اسمه محمد البلقيني رسالة في مناقب بعض الأولياء سميت طبقات أحمد الشرنوبي، وله أيضاً تائية السلوك إلى ملك الملوك (ت994 هـ /1585م). سركيس، يوسف البان، معجم المطبوعات العربية والمعربة، القاهرة 1928 ص 1118-1119.

([7]) الشرنوبي، أحمد بن عثمان (ت994 هـ /1585م) تائية السلوك إلى ملك الملوك، شرحها الشيخ عبد المجيد الشرنوبي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 2002، ص112-114 .

والذي يظهر أنه لم يلتزم أحد من الصوفية بهذه الشروط وإلا لما أقدم الإمام موفق الدين عبد الله بن أحمد المقدسي (ت620هـ/1223م) [1] على تصنيف رسالة ذم فيها ما يفعله بعض المتصوفة من الغناء والرقص والتواجد وضرب الدف وسماع المزامير ورفع الأصوات المنكرة بما يسمونه ذكراً وتهليلاً بدعوى أنها من أنواع التقرب لله تعالى[2]، وقد انتقدهم إدريس بن بيدكين التركماني فقال:(مساكين استزلهم الشيطان واستغوى عقولهم في حب الأغاني والسماع واعتقدوه من الدين الذي يقربهم لرب العالمين)[3].

وهذا ما حاولت الدولة المملوكية منعه لاحقاً عندما أصبحت ظاهرة مزعجة فيذكر السخاوي أنه صدر مرسوم سنة (852هـ/1448م) يقضي بترك المزمار والرقص وغيرها من البدع التي كانت تمارس في بعض الزوايا[4]، وعرف البعض منهم تناول الحشيشة واشتهر بها تحديداً أصحاب الطريقة القلندرية [5].

وقد قال أحدهم في وصف الحشيشة (البحر الطويل):

وخضراء لَا الْحَمْرَاء تفعل فعلهَا لَهَا وثبات فِي الحشا وثبات

تؤجج نَاراً فِي الحشا وَهِي جنَّة وتبدي مرير الطّعْم وَهِي نَبَات [6]

---

(1) موفق الدين عبد الله بن أحمد المقدسي فقيه، من أكابر الحنابلة، ولد في جماعيل وتعلم في دمشق، ورحل إلى بغداد فأقام نحو أربع سنين، وعاد إلى دمشق، له تصانيف كثيرة أهمها مختصر الخرقي، في الفقه، و" روضة الناظر " في أصول الفقه، و " المقنع ، و" ذمّ ما عليه مدّعو التصوّف (ت620 هـ /1223م) الذهبي، العبر، ج3، ص180-181. سير أعلام النبلاء، ج16، ص149-153.

(2) الأدفوي، الموفي بمعرفة التصوف، ص13.

(3) التركماني، اللمع في الحوادث والبدع، ص91.

(4) السخاوي، محمد بن عبد الرحمن (ت902هـ/1496م) وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، ط1، ج2، تحقيق بشار عواد وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1995، ص 621-622 وسيشار إليه لاحقاً السخاوي، وجيز الكلام.

(5) أحمد الرويس الاقباعي الصوفي قتل في دمشق لاستحلاله المحارم وتعرضه للنبوة وكان له كشف وأخبار عن المغيبات، فضل به الجهلة وكان يأكل الحشيشة ويترك الصلاة (ت715 هـ /1315م) الذهبي، العبر، ج4، ص41. اليافعي، مرآة الجنان، ج4، ص191. ابن العماد، شذرات الذهب، ج8، ص65.

(6) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج3، ص125.

الفصل الرابع

دور المؤسسات الصوفية في الحياة العامة

المبحث الأول: المنشآت التابعة للمؤسسات الصوفية ودورها في الحياة العامة

في البداية أود أن أتطرق إلى المنشآت التي كانت ملحقة بالمؤسسات الصوفية، وهي ضرورية حتى تؤدي هذه المؤسسات دورها على أكمل وجه، وأول هذه المنشآت **الخلوات**، فكان من الضروري أن تلحق بالخانقاه خلوات لإقامة من تقرر نزولهم فيها من الصوفية حسب شروط الواقف، بالإضافة لمساكن أخرى لشيخ الخانقاه ومدرسي المذاهب، وغيرهم ممن أنيطت بهم مهمة القيام بأمور الخانقاه إشرافاً وتدريساً، والخلوات حجرات صغيرة متجاورة على جانبي استطراق ضيق، ذات أرضيات مفروشة ببلاطات من الحجر الجيري المغطى بالحصير، وقد تحتوي بعض هذه الخلوات على مصاطب ذات ارتفاع أكبر قليلاً من الأرضية بما يقرب من درجة واحدة، وذات سقف كان مسطحاً أحياناً وعبارة عن قبو نصف دائري أحياناً أخرى، أما نوافذها المنخفضة فكانت تستخدم كثيراً كمصطبة للقراءة، وغالباً ما وجدت نافذة أعلى الباب لغرض التهوية والإنارة[1].

وهناك **خزانة الأشربة والأدوية** فقد حرص منشئو المؤسسات الصوفية على توفير كافة الضروريات اللازمة لمن ينزلونهم في المؤسسات الصوفية حتى يغنوهم عن العالم الخارجي فيتفرغوا للزهد والعبادة، فخصصوا الكثير من الأطباء طبائعياً وجرائحياً وكحالاً، وقد استتبع هذا أن تُنشأ خزانة الأشربة والأدوية، لكي يصرف منها المرضى ما يوصف لهم بمعرفة الأطباء من عقاقير، فمثلاً حجة وقف السلطان الغوري كانت قد نصت على تخصيص طبيب يتفقد مرضى

([1]) لمعي، صالح مصطفى، التراث المعماري الإسلامي في مصر، جامعة بيروت العربية، بيروت 1975، ص29.

صوفية خانقاته، وجعلت له خمسمائة درهم كأجر شهري يتقاضاه مقابل مراعاته لهؤلاء الصـــوفية، وكتابة ما يلزم من أدوية للمرضى منهم، ونصت الوقفية أيضاً على ضرورة أن يحسن هذا الطبيـــب معاملتهم وأن يعمل في ذلك بما يرضي الله تعالى[1].

ومن المنشآت أيضاً **السبيل والكتّاب** فقد اعتنى سلاطين المماليك وأمراؤهم ووجهاء عصرهم ببناء أسبلة تعلوها كتاتيب إما ملحقة في أركان مساجدهم ومدارسهم وخوانقهم وإما منفردة عن هـــذه وتلك كما في أسبلة الناصر محمد وشيخو والوفائية وقايتباي ونحوها[2].

والأسبلة مشتقة من أسبل الماء بمعنى صبّه ويقال: أسبل المطر بمعنى هطل، والسبيل منشـــأة اتصلت اتصالاً وثيقاً باستخدام الماء للشرب[3]، وهو عبارة عن مبنى جرت العادة على إقامته داخـــل المدن لسقاية المارة وإروائهم من باب التقرب إلى الله تعالى، ثم انتشرت سقاية المـــاء عـــن طريـــق الأسبلة في مختلف العهود الإسلامية، ويتكون السبيل عادةً من طابقين أولهما صهريج لخزن المـــاء في باطن الأرض فوقه مزملة أو حجرة سبيل بصدرها سلسبيل هو عبارة عن لوح من الرخام فيـــه زخارف محفورة ينساب عليها الماء البارد ليبرد ثم يوزع على أحواض الشبابيك ليشرب منه الناس، وجرت العادة أن يُبنى السبيل بجوار المدخل ويفتح مباشرةً على الدركاه أو يكون له بـــاب الـــدهليز المؤدي إلى الصحن، حتى يكون نقل المياه بالقرب إليه أمراً سهلاً وميسّراً، ومن أهم الأســـبلة التـــي يُشار لها بالبنان في العصـــر المملـــوكي ســـبيل الجـــاي اليوســـفي الـــذي يرجـــع تاريخـــه إلـــى

([1]) لمعي، التراث المعماري الإسلامي في مصر، ص29.

([2]) زكي، محمد حسن، فنون الإسلام، دار الرائد العربي، بيروت 1981 ص28.

([3]) مصطفى، إبراهيم، وآخرون، المعجم الوسيط، ج1، دار الدعوة، اسطنبول 1989 ص287.

سنة 774هـ/1373م وكات أرضية السبيل تُفرش بالرخام الملون المرصوص في فصوص بديعة تكوّن أشكالاً هندسية ونباتية، أما حوائطه فكانت تؤزر بوزرات رخامية ملونة[1].

ومن المنشآت المهمة كان **الحمام**، نظراً لأهميته بالنسبة للعامة في التطهر والنظافة، وقد حرص المعمار المسلم على بنائها وفقاً لنظام يتيح للمستحم أن ينتقل بالتدريج بين المغاطس الباردة والحارة دون أن يصاب بأذى، لذا فإن كل حمام كان يشتمل على ثلاثة مغاطس تتدرج سخونتها من مغطس إلى آخر، وكانت عملية تسخين هذه المغاطس تتم عن طريق إيقاد النار تحت أرضها، أو تسخينها بواسطة أنابيب من الفخار تمر تحت هذه الأرضية، أو تجري في جدران تلك الحمامات، وكانت تزيّن هذه الجدران أحياناً بالصور والنقوش كما كان الحال في بقايا الحمام الفاطمي الذي عُثر عليه في الفسطاط، وقد حرص أصحاب الخوانق على أن يُلحقوا بالحمام حلّاقاً لتدليك الأبدان وحلق الرؤوس، وبذلك يوفّرون للصوفية النظافة والتدليك وقص الشعر[2].

وبطبيعة الحال لا غنى عن **المطبخ**، فكان من الضروري لمنشأة معمارية خصّصت لإقامة مجموعة من الصوفية بصفة دائمة بالليل والنهار أن تشتمل على مطبخ لإعداد الوجبات اللازمة لهؤلاء المتصوفة، وكان هذا المطبخ عبارة عن حجرة كبيرة بارتفاع طابقين ذات سقف معقود بقبو نصف دائري أو مدبب، وذات أرضية مفروشة ببلاطات من الحجر الجيري، وكان من المعتاد أن يُجهّز هذا المطبخ بحوض كبير من الحجر تتصل به داخل الجدران مواسير المياه اللازمة لإمداده بها، كما كان يوجد في بعض المطابخ مصطبة خصّصت لجلوس العاملين فيه، وقد راعى المعمار أن يكون هذا المطبخ بجوار كل من باب الخدمة الملحقة بالخانقاه ودروة المياه، ومن أبرز الأمثلة

([1]) لمعي، التراث المعماري الإسلامي في مصر، ص33.

([2]) زكي، فنون الإسلام، ص28.

على المطابخ التي ألحقت بالخوانق مطبخ مدرسة وخانقاه الظاهر برقوق بالنحاسين التي بنيت بين سنتي 786-788 هـ /1384-1386م، وكذلك مطبخ خانقاه الناصر فرج بن برقوق بالقرافة الشرقية التي بنيت بين سنتي 801-803 هـ / 1399-1401م[1].

أما **الساقية** فكانت آخر المنشآت التي تُلحق بالخانقاه، وكان المقصد من إنشاء هذه السواقي أن يُرفع الماء بواسطتها من البئر إلى الصحن أمام إيوان القبلة، ومن ثم إلى الفسقية التي تتوسط هذا الصحن، ومنها إلى الميضأة التي كانت تجهز لوضوء المصلين، وقد حددت شروط الوقف الخاصة بهذه المنشآت كيفية الإنفاق على هذه المرافق وغيرها مما تحتاج إليه من الأطباق والسلاسل والأباريق والجرار وما شابه ذلك[2].

المبحث الثاني: أوقاف المؤسسات الصوفية وما أدته من خدمات

كانت الخوانق عبارة عن دور للعلم والعبادة، فقامت بأدوار دينية وثقافية واجتماعية في حياة المجتمع الإسلامي منذ نشأتها في غالب الظن في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، لقد كانت الخوانق معاهد للمذاهب الفقهية والحديث والقراءات والتصوف وغير ذلك من العلوم الشرعية وما يتصل بها، كما أنها بنفس الوقت كانت مواقع إيواء لكل وافد إلى الديار من البلاد الإسلامية الأخرى ممن لم يكن لهم مأوى أو ملجأ، وكنت أيضاً مراكز إشعاع ثقافي بما احتوته بعض مكتباتها من الكتب المصنفة في شتى صنوف العلوم والمعارف، فخانقاه شيخون مثلاً كانت تشتمل على أربعة دروس للمذاهب الفقهية إلى جانب درس للحديث النبوي ودرس لإقراء القرآن

([1]) لمعي، التراث المعماري الإسلامي في مصر، ص43-44.

([2]) النويري، شهاب الدين أحمد (ت 733 هـ /1232م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج32، تحقيق مفيد قمحية وآخرون، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 2004 ص70.

بالقراءات السبع، وذلك حسبما ورد في وقفيتها، وجعلت الوقفية لكل درس من الدروس مدرّس وجماعة اشترط عليهم حضور الدرس وحضور وظيفة التصوف.

يقول المقريزي أن الخوانق حدثت في حدود الأربعمائة من سني الهجرة، وأن أوّل من اتخذ بيتا للعبادة زيد بن صوحان بن صبرة، وذلك في عهد عثمان رضي الله عنه، وذلك أنه عمد إلى رجال من أهل البصرة قد تفرّغوا للعبادة وليس لهم تجارات ولا غلات، فبنى لهم دوراً وأسكنهم فيها وجعل لهم ما يقوم بمصالحهم من مطعم ومشرب وملبس وغيره، فجاء يوماً ليزورهم فسأل عنهم فإذا عبد الله بن عامر عامل البصرة لأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه قد دعاهم، فأتاه فقال له: يا ابن عامر ما تريد من هؤلاء القوم؟ قال: أريد أن أقرّبهم فيشفعوا فأشفعهم، ويسألوا فأعطيهم، ويشيروا عليّ فأقبل منهم. فقال: لا ولا كرامة، فتأتي إلى قوم قد انقطعوا إلى الله تعالى فتدنسهم بدنياك وتشركهم في أمرك، حتى إذا ذهبت أديانهم أعرضت عنهم فطاحوا لا إلى الدنيا ولا إلى الآخرة، قوموا فارجعوا إلى مواضعكم، فقاموا، فأمسك ابن عامر فما نطق بلفظة[1].

وقد نقل علي باشا مبارك في القرن 13 هـ /19م هذه القصة كاملة عن المقريزي، إلا أنه أضاف أن اسم الخانقاه لم يكن مستعملاً في مصر على عهده، بل إنه استعمل بدله لفظة التكية والزاوية وهي تأتي بنفس المعنى[2].

ويمكننا أن نعتبر أن الخانقاه الصلاحية هي أول خانقاه في مصر والتي كانت تعرف بدار سعيد السعداء، وهي تنسب للأستاذ قنبر أو عنبر عتيق الخليفة المستنصر بالله الفاطمي الذي قتل سنة 544 هـ /1149م، وقد حدث ذلك عندما استق صلاح الدين بأمور مصر، فعمل هذه الدار برسم

([1]) المقريزي، الخطط، ج4، ص282.

([2]) مبارك، علي باشا، الخطط التوفيقية، ج6، ص48-49.

الفقراء الصوفية، ووقف عليها أوقافاً كثيرة، فكانت بذلك أول خانقاه عملت بالديار المصرية، وعرفت بدويرة الصوفية، وكان أهلها يعرفون بالعلم والصلاح، ويُشار إلى أن هذا الخانقاه ما زالت بقاياها قائمه بحي الجمالية من القاهرة وتعرف بجامع الخانقاه[1].

لقد نقل صلاح الدين هذه الخانقاه بنظمها ولوائحها وأحباسها، واختصت الدار الفاطمية سعيد السعداء بها، بعد أن عدّل كيانها المعماري لتفي بالغرض الذي سعى إليه، ولتؤدي من خلاله رسالتها التي أنيطت بها، إلى أن كان العصر المملوكي بفترتيه البحرية والبرجية، فأصبحت الخانقاه عمارة مستقلة لها تخطيط خاص، تعددت جوانبه واكتملت مقوماته حتى بلغ ذروته عندما أصبحت الخوانق شبه جامعات كبرى، يأتيها طلاب العلوم ولا سيما العلوم الدينية، من كافة أرجاء العالم الإسلامي في ذلك الزمن.

ولا بد من ذكر الكرامية (أصحاب محمد بن كرام) الذين شيدوا عدداً كبيراً من مجالس الذكر في بيت المقدس وإيران وما وراء النهر، وكانت لهم محلة بالفسطاط وذلك قبل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي[2]، وهذا يعني أن ظهور الخوانق في شرق العالم الإسلامي خلال العصر العباسي في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي كان قد سبقه ما شيّده الكرامية قبل ذلك بقرن من الزمان تقريباً[3].

ويظهر أن صوفية الخانقاوات كانوا أصحاب مشارك إيجابية فاعلة في حياة المجتمع العلمية، فكان شيوخها الأوائل من حملة علوم الشريعة، يتميزون بعلوم التزكية وتصفية النفس، مما دفع

([1]) المقريزي، الخطط، ج4، ص282.

([2]) متز، آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج2، ص29–30.

([3]) ماهر، سعاد، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، ج1، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة 1971 ص25–26.

الكثير من المتصوفة إلى الالتحاق بها، وكثر الإقبال على هذه الخوانق، إلى أن انحط أمرها في آخر المطاف وسكنها الأراذل بعد الصفوة [1].

أما عن الأوقاف التي كانت توقف على الخوانق والربط والزوايا فإن سلاطين المماليك كانوا قد اهتموا بها كثيراً، وأوقفوا عليها الأوقاف السخية من الأراضي والعقارات، فإن تم بناء إحداها وكانت للسلطان، يأتي السلطان ليفتتحها بنفسه، وذلك في احتفال كبير يحضره رجال الدين والقضاة ومشايخ الصوفية، ولقد حرصت معظم الحجج الوقفية المتعلقة بهذه الأبنية على وضع الشروط الكفيلة بانقطاع الصوفية فيها للعبادة، وعدم تغيبهم عنها لما يزيد عن ثلاثة أيام في الشهر الواحد بحيث لا يُقطع لهم معلوم، فإن غاب أحدهم أكثر من هذه الثلاثة أيام انقطع معلومه، فيوفّر لجهة الوقف، وهنا لا بد من أن نلاحظ ملاحظة قلّما تنبه إليها الباحثون، وهو أنه لم يكن من مصلحة الصوفية ووقف الخانقاه ثابت لا يتغير، أن يزداد عددهم، حتى لا تؤدي هذه الزيادة العددية إلى نقص في رواتبهم وجراياتهم، بما يؤدي بدوره إلى انخفاض مستوى معيشتهم، وكانوا كثيراً ما يدافعون عن هذا الأمر، وكان من نتيجة هذا الحرص أن ظهرت العصبيات الطائفية بينهم، وليس هذا فحسب، بل إن عملية انتقال مريد من شيخ إلى شيخ أو من خانقاه إلى أخرى، كثيراً ما كانت تترجم إلى نزوع هذا المريد إلى الدنيا وترك الدين، خصوصاً أن بعض هذه الخانقاوات كانت تتمتع بأوقاف كثيرة تجعل حياة صوفيتها أكثر ليونة وسعة[2]، ومهما يكن من أمر فإن إدخال هذه المنشآت إلى مصر كان بمثابة انقلاب ثقافي فيها، أدى إلى زوال صفة الهرطقة الشيعية منها، وإلى تدفق الثقافات المختلفة عليها من جميع أنحاء العالم الإسلامي[3].

([1]) دولت، عبد الله، معاهد تزكية النفوس في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، ص23.

([2]) عاشور، سعيد، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص170-173.

([3]) لين بول، ص167.

التدريس في المؤسسات الصوفية:

في البداية نشأ التدريس في الإسلام بنشأة المجتمع الإسلامي، فقد ذكر الإمام الغزالي أن جماعة من الصحابة كانوا يمارسون ذلك في مسجد قباء على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم[1]، وكان من نتيجة ذلك أن استخدمت المساجد للدراسة منذ ذلك العهد، وكان مسجد الرسول بالمدينة هو أول جامعة للمسلمين، فيذكر ابن خلكان في القرنين السادس والسابع الهجريين/الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين أن أبا عثمان بن ربيعة كان يجلس في المسجد، فيأتيه مالك والحسن والأشراف من المدينة للأخذ عنه وكانت له فيه حلقة وافرة[2].

إنه لا يكاد بخلو تاريخ شيخ من الشيوخ من الإشارة إلى حلقة كانت له بمسجد من المساجد، حتى انتشرت هذه الحلقات منذ العصور الإسلامية المبكرة في المساجد الجامعة بمصر والشام والحجاز والعراق والقيروان وقرطبة وغيرها، وقد سمى المؤرخون الدرس في هذه المساجد (حلقة)، وبالتأكيد سميت بذلك لأن مريدي العلم كانوا ينتظمون في حلقة تضيق وتتسع حول شيخها، تبعاً لعدد الطلاب الدارسين عليه، ولعل خير ما يُنقل في هذا الصدد ما ذكره السيوطي في كتابه حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة من أن محمد بن سليمان أبو بكر النعالي (ت380 هـ /990م) كانت حلقته في الجامع العتيق (جامع عمرو بن العاص) تدور على سبعة عشر عموداً من كثرة من يحضرها[3].

([1]) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت505 هـ /1111م) إحياء علوم الدين، ج1، دار المعرفة، بيروت 1995 ص64.

([2]) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص288.

([3]) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر (ت911 هـ /1505م) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ط1، ج1، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر 1967 ص451.

وكان كل شيخ يستند على سارية في المسجد أو إلى اسطوانة أو عامود فيه، حتى أن هذه الاسطوانة كانت تظل وقفاً عليه ما دام قائماً بالتدريس وهو على قيد الحياة، وكثيراً ما تنسب إليه بعد وفاته[1]، ومن غير المشكوك فيه أن هذه الاسطوانة كانت موضع اعتبار كامل من الطلاب، وكان لها نظام مرعي منهم، يدل على ذلك ما ذكره المقدسي بقوله: أن الشيخ إذا قدم لاسطوانته نادى أحد مريديه على الباقين بقوله: دوروا وجوهكم نحو المجلس[2].

وهذا النظام لم يكن سائداً، فقد جلس بعض المدرسين في محراب المسجد بدلاً من الجلوس إلى الاسطوانة أو العامود، بل إنها سميت الحلقة في بعض روايات المؤرخين ولا سيما المقريزي وابن جبير، ويقول ابن جبير أنه كان للمالكية بجامع دمشق الأموي زاوية للتدريس في الجانب الغربي منه، يجتمع فيها طلبة المغاربة، ولهم اجراء معلوم[3]، وما ذكره المقريزي من أنه كان بجانب عمرو بن العاص بالفسطاط زوايا يدرّس فيها الفقه[4].

ومن المؤكد أن هذه الحلقات لم تكن مقصورة على العلوم الدينية فحسب، بل جلس للتدريس فيها مشايخ علوم اللغة العربية والنحو وعلوم التاريخ وغيرها من العلوم العقلية، وظل التدريس في المساجد الجامعة بهذا الشكل مستمراً منذ القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي[5]، وهكذا كان أصل التدريس في الإسلام، يستوي في ذلك التدريس في المدارس أو في الخانقاوات والزوايا، أما عن

([1]) ابن جبير، محمد بن أحمد بن جبير الكناني (ت614 هـ /1217م) رحلة ابن جبير، دار ومكتبة الهلال، بيروت 2000 ص220.

([2]) المقدسي، محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت380 هـ /990م) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط3، مكتبة مدبولي، القاهرة 1991 ص205.

([3]) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص220.

([4]) المقريزي، الخطط، ج4، ص22.

([5]) فكري، أحمد، مساجد القاهرة ومدارسها في العصر الأيوبي، ص143-146.

أجور المدرسين وسكن الطلاب، فتفيدنا المصادر والمراجع أن هذا التدريس كان مباحاً لكل من وجد في نفسه القدرة عليه، تماماً كما كان الاستماع إلى الدرس مباحاً لكل من رغب فيه، فكان العلماء يعلّمون والطلبة يتعلمون، وكل على حسابه الخاص باستثناء ما كان يمنحه الخلفاء والأمراء ونحوهم من هبات، وكانت مسؤولية حياة الشيوخ ومريديهم تقع في تلك الحقبة المزهرة من تاريخ العلوم الإسلامية على عاتق جماعة المسلمين الذين اعتبروا بيت الله وما يدرّس فيه مسؤوليتهم، فقدموا للمدارس والمدرسين كل ما يحتاجونه من حتى يعينوهم على هذا العمل الجليل من الدرس والتحصيل، وظل الأمر على ذلك قروناً عديدة حتى كانت أول خطوة من خطوات تدخل الخلفاء والولاة وأولي الأمر في شؤون التدريس، فأنشأوا له دور العلم وبيوت الحكمة التي سرعان ما عيّنوا لها المدرسين لقاء راتب محدود، ويذكر المقريزي أن أول درس بديار مصر من هذا النوع كان في خلافة العزيز بالله الفاطمي ووزارة يعقوب بن كلس[1] سنة 378 هـ /988م عندما بنى العزيز داراً لجماعة الفقهاء بجوار الأزهر، وكان هؤلاء خمسة وثلاثون فقيهاً رتب الخليفة لكل منهم من المعلوم ما يكفيه[2]، ويغلب الظن أن هذا المعلوم كان يجري على المدرسين والطلاب على السواء، وفي هذا ما يثبت أن بناء الدور العلمية للشيوخ والمريدين، وجراية الأرزاق عليهم، كان قد أصبح حقيقة واقعة في مصر منذ العصر الفاطمي الأول.

([1]) يعقوب بن يوسف بن إبراهيم بن هارون بن كلس، وزير من الكتاب الحساب، ولد ببغداد، وسافر به أبوه إلى الشام، ثم أنفذه إلى مصر، فاتصل بكافور الإخشيدي، فولّاه ديوانه بالشام ومصر، ووثق به فكان يشاوره في أكثر أموره. وكان يهوديا، فأسلم في أيامه (سنة 356 هـ /967م) ثم انتقل إلى المغرب الأقصى فخدم " المعز " الفاطمي (سنة 363 هـ /974م) وتولى أموره، ثم ولي الوزارة للعزيز، وعظمت منزلته عنده، وصنف كتاباً في " الفقه " على مذهب الباطنية، يعرف بالرسالة الوزيرية، أخذه عن المعز وابنه العزيز، وكان يعقد المجالس في الجامع العتيق، فيقرر المسائل الفقهية على حسب مذهبهم (ت380 هـ /990م). ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج7، ص27.

([2]) المقريزي، الخطط، ج4، ص162.

ثم جاءت الإشارة إلى الأجر المعلوم في شرق العالم الإسلامي في إيران فيما ذكــره الإمــام السبكي، من أن نظام الملك الطوسي – وزير السلطان ألب أرسلان وملكشاه– الذي توفي بعد العزيز بالله الفاطمي بقرن من الزمان كان يجري المعاليم على الفقهاء والطلبة[1]، ويذكر الإمام السيوطي أن هذا الوزير كان يحب الفقهاء والصوفية ويكرمهم ويؤثرهم، فبنى لهم المدرسة النظامية فــي بغــداد سنة 359 هــ /1066م واقتدى الناس به في بناء المدارس أيضاً[2]، ومع ذلك فقد عاد السيوطي إلى القول نقلاً عن الحافظ الذهبي في كتابه تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام أنه أنكر على مــن زعم أن نظام الملك أول من بنى المدارس مدللاً على ذلك بكثير من المدارس التي بنيت قبل أن يولد نظام الملك نفسه، ومنها مدارس نيسابور الأربعة وهي المدرسة البيهقية بنيسابور قبل أن يولد نظــام الملك، والمدرسة السعيدية بنيسابور أيضاً، بناها الأمير نصر بن سبكتكين أخو السلطان محمود لمــا كان والياً بنيسابور، ومدرسة ثالثة بنيسابور، بناها أبو سعد إسماعيل بن علي بن المثنى الأستراباذي الصوفي الواعظ شيخ الخطيب، ومدرسة رابعة بنيسابور أيضاً بنيت للأستاذ أبي إسحاق[3]، وكانــت هاتان الحالتان على ما يبدو سبباً في شيوع التدريس بأجر معلوم في بقية أنحاء العالم الإسلامي، منذ القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ويؤيد ذلك ما ذكره ابن جبير في القــرن الســادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، من أنه شاهد عند زيارتــه للجــامع الأمــوي فــي دمشــق ســنة

([1]) السبكي، تاج الدين عبد الوهاب(ت771 هــ /1369م) طبقات الشافعية الكبرى ط2، تحقيق محمود الطنــاجي وعبد الفتاح الحلو، دار هجر،الرياض 1992

([2]) السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج2، ص255.

([3]) السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج2، ص255.

580 هـ /1180م فقيهاً إشبيلياً عرف بالمرادي كان يستند إلى سارية من سواري المسجد، وكان لهذه السارية وقف معلوم يأخذه المستند إليها للتدريس والمذاكرة[1].

ويقول المقريزي أن المنصور قلاوون رتّب في قبّته درساً للحديث النبوي ودرساً للتفسير وكان ذلك سنة 685 هـ /1285م[2]، وفي سنة 703 هـ /1303م رتّب الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير دروساً للمذاهب الفقهية الأربعة ودروساً لإقراء الحديث في مسجد الحاكم، وجعل لكل درس مدرساً وعدد كثير من الطلبة[3]، ومما لا شك فيه أن تحديد الرواتب للمدرسين وتعيين الجرايات لهم كان بمثابة الخطوة التي اتخذها الخلفاء والولاة، ذريعة للتدخل في شؤون التدريس بصفة عامة، إما تكريماً لأحد أو تقريباً له دون أحد آخر، وإما تمييزاً للبعض دون البعض لأسباب سياسية أو دينية، ويؤيد ذلك ما ذكره ياقوت الحموي من أن الشيخ يحيى بن علي الخطيب التبريزي كان قد أخرج من المدرسة النظامية التي رتب لتدريس النحو فيها لاتهامه بالتشيع[4].

وقد اعتبرت مشيخة الخوانق من الوظائف التي يصدر بها مرسوم من ديوان الإنشاء السلطاني، واختلفت مكانة كل شيخ من شيوخ هذه الخانقاوات وذلك تبعاً لأهمية الخانقاه التي يتولى مشيختها، واشترط فيه أن يكون من جماعة الصوفية ممن عرف بصحبة المشايخ، وألا يكون قد اتخذ من التصوف حرفة[5]، كذلك كان الحال بالنسبة للمدرسين، فقد ذكر القلقشندي أن وظيفة التدريس بالخانقاه كانت جليلة القدر، يخلع السلطان على صاحبها، ويكتب له توقيعاً من ديوان

([1]) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص220.
([2]) المقريزي، الخطط، ج4، ص226.
([3]) المقريزي، الخطط، ج4، ص60.
([4]) الحموي، معجم البلدان، ج2، ص13.
([5]) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج11، ص364-365.

الإنشاء، يختلف باختلاف المادة التي سيقوم بتدريسها، وفي هذا التوقيع يقدم النصح للمدرس، بألا يبخل بمكنون علمه على الطلاب، وأن يقوم على الدرس طلق الوجه منشرح الصدر ليستميلهم إليه ويربيهم كما يربي الوالد ولده[1]، قد سادت العادة كما يقول الذهبي أن يعين لكل مدرس معيد أو أمثر تكون مهمته أن يعيد للطلبة ما ألقاه الشيخ حتى يزيد فهمهم له ويحسنوه[2].

أما بالنسبة للطلبة فالراجح أنهم كانوا يتمتعون بحرية اختيار المواد التي يدرسونها، وكثيراً ما اعتمد هذا الاختيار على مكانة المدرس وشهرته العلمية، ويظل الطالب يدرس مع أحد المدرسين أو الشيوخ حتى يأخذ منه كفايته، ثم ينتقل إلى آخر وهكذا، فإذا أتم هذا الطالب دراسته، وتأهب للفتيا والتدريس أجاز له شيخه ذلك، وكتب له إجازة تشتمل على اسم الطالب وشيخه ومذهبه وتاريخ حصوله عليها إلى غير ذلك من التوثيق الذي يبيح له القيام بالفتيا والتدريس[3]، وكثيراً ما نصت شروط الوقف بالنسبة للخانقاوات والزوايا على تفضيل الأفقر والأحوج من طلاب أهل البلاد، ثم

([1]) من نصوص تقليد مشيخة الخانقاه نورد هذا النص في كتاب صبح الأعشى" .... ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مخلص في التوحيد، يتبوأ بها جنان الخلد ويخلص من سماع قول جهنم: هل من مزيد، ونشهد أن سيدناً محمدا عبده ورسوله الذي أسرى به إلى حضرة أنسه، وحظيرة قدسه، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين منهم من سبق الأمة بشيء وقر في صدره، ومنهم من دلت واقعة سارية على علو شأنه ورفعة قدره، صلاة لا تزال الأرض لها مسجداً، ولا يبرح ذكرها مغيراً في الآفاق ومنجداً، وسلم تسليما كثيراً، وبعد، فإن أحق من عومل بالتقديم، وأجدر من يخص بالتكريم، من كان قدره في الأولياء عظيماً، وذكره في الآفاق بين أهل المعرفة قديماً، وتجريده عن الدنيا مشهوراً، وسعيه على قدم الطاعة مشكوراً، وشهوده لمقام الكمال مستجلياً، واستجلاؤه لمواد الأنس مستملياً؛ فهو في هذه الطائفة الجليلة سري المقدار، معروف الصفة في حلية الأولياء ومناقب الأبرار، والمتقدم من الإمامة في مجمع الأخيار....." .القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج12، ص100-101.

([2]) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج50، ص336.

([3]) عاشور، سعيد، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص144-146.

يليهم في الأفضلية الفقراء المغتربون، علاوة على تقديم الأعزب دون المتزوج للمبيت في خلوات الصوفية بها حتى يكون منقطعاً متفرغاً لها[1].

ويقول السخاوي أن هذه الدراسة لم تخلُ من ضروب الترويح عن النفس أحياناً، فكثيراً ما أقيمت الحفلات في مختلف المناسبات الدراسية، كختم البخاري أو تصنيف كتاب أو نحو ذلك، حيث يقوم صاحب الحفل بإحضار ما لذ وطاب من المأكول، فيجلس أهل المدرسة ومعهم الأعيان والقضاة في مناقشات علمية خفيفة حتى ينتهي الحفل الذي غالباً ما كان على نفقة صاحبه ونادراً ما كان على نفقة المدرسة[2].

وإن غالبية المدارس والخوانق كانت تلحق بها خزانة كتب تضم العديد من المؤلفات في مختلف العلوم والفنون، يرجع إليها المدرسون والطلاب للاستزادة من البحث والاستقصاء كل في مجال تخصصه، وكان يشرف على هذه الخزانة أمين للمكتبة يقال له خازن الكتب، كانت مهمته ترتيب هذه الكتب، وتنظيمها وحفظها وحبكها وترميمها، بالإضافة إلى قيامه بإرشاد القراء إلى ما يلزمهم منها، لذلك كان اختيار هذا الخازن أمراً تحدد له شروط أهمها أن يكون فقيهاً عالماً يراعى فيه سعة العلم والأمانة[3]، كما وجدت خزائن في الترب والربط، فهذا ابن خلكان يذكر أنه عثر في خزانة كتب التربة الأشرفية بدمشق على ديوان في مجلد كبير للشاعر أسعد بن يحيى[4]، ويؤكد ياقوت الحموي أنه شاهد المكتبة الضميرية في خانقاه بمرو[5].

([1]) عاشور، سعيد، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص170.

([2]) السخاوي، محمد بن عبد الرحمن (ت902 هـ /1497م) التبر المسبوك في ذيل السلوك، ص216.

([3]) عاشور، سعيد، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص145-146.

([4]) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص214.

([5]) الحموي، معجم البلدان، ج، ص.

وقد ألحق بهذه الخزائن غرف للنسخ يجلس بها النساخ على مقاعد مهيّأة لهم، ينسخون عليها الكتب التي يُطلب منهم نسخها عن طريق موظف اختص بجلب هذه الكتب إليهم وإعادتها إلى أماكنها بعد نسخها، كذلك كانت هذه الخزائن تُزود بالبسط والسجاجيد والستائر وجميع ألوات الأثاث الذي يمكّن روّاد الخزانة من المطالعة المربحة، فالمقريزي يذكر أن دار الحكمة بالقاهرة لم تفتح للناس إلا بعد أن فرشت وزخرفت وتعليق الستائر على جميع أبوابها وممراتها[1].

وكانت بهذه الخزائن غرف للمطالعة وأخرى للمناظرة والاجتماعات والمحاضرات، كما زودت الغرف المعدة لخزن الكتب بالرفوف الخشبية التي جعلت في بعض الخزائن مفتوحة دون مصاريع عليها، وبعضها كان له أقفال لحماية ما تحتوي عليه من أيدي العابثين، وقد اعتادت معظم المكتبات على تزويد روادها بالأقلام والأوراق والحبر وكل ما يساعدهم على النسخ، وكان يُعهد بالإشراف على المكتبات الكبرى إلى ثلاثة أشخاص يأتي على رأسهم المشرف الأعلى ويسمى الوكيل، يليه أمين المكتبة ويسمى الخازن، ثم مساعد الأمين ويسمى المشرف، وقد ظلت المحافظة على هذا النظام الإشرافي الثلاثي قائمة مع مرور الزمن وإن تغيرت فيها المسميات[2].

يذكر كثير من المؤرخين أن التصوف لم يكن حكراً على المؤسسات الصوفية كالخوانق والزوايا، بل كان هناك تصوف في كثير من الأبنية الأثرية التي لم يرد لها ذكر في أي من المصادر والمراجع التي تحدثت عن الخانقاوات ولا سيما المدارس والترب، وهذا يدل أنه كان هناك تصوفاً في كثير من المنشآت المعمارية المملوكية غير الخانقاوات، وقد ذكر السخاوي فيما يتعلق بالتصوف في المؤيدية تراجم عديدة منها ترجمة إبراهيم بن حجاج بن محرز بن مالك الدهان أبو

([1]) المقريزي، الخطط، ج4، ص13.

([2]) حمادة، محمد ماهر، المكتبات في الإسلام، ص150.

اسحق الأبناسي القاهري الشافعي المولود بأبناس (بلدة بالوجه البحري) وقال : " ولم يكن باسمه من الوظائف سوى التصوف بالمؤيدية بتنزيل الواقف وبيده مرتب يسير في الجوالي وبعض رزق"[1].

وفي ترجمة سعد بن محمد بن عبد الله بن سعد بن أبي بكر بن مصلح بن أبي بكر النابلسي الأصل المقدسي الحنفي نزيل القاهرة ويعرف بابن الديري (نسبة لمكان بمردا جبل نابلس أو الدير الذي بحارة المرادويين من بيت المقدس) ولد سنة 768 هـ /1367م حفظ القرآن عند الشيخ حافظ وغيره وكتبا منها الكنز وبعض المنظومة وجميع مختصر ابن الحاجب الأصلي والمشارق لعياض وحفظ أكثره في اثنى عشر يوما وكان سريع الحفظ مفرط الذكاء، اجتمع بجماعة من مشايخ الصوفية كالشيخ محمد القرمي وعبد الله البسطامي وسعد الهندي وأبي بكر الموصلي، توفي سنة 867 هـ /1463م بمصر العتيقة ودفن بترية الظاهر خشقدم[2].

وأيضاً ترجمة عبد القادر بن الشيخ عمر بن حسين بن علي بن شرف بن سعيد بن خطاب محيي الدين الزفتاوي الأصل القاهري المقدسي الشافعي الأحدب، ولد بالقاهرة ونشأ بها فحفظ القرآن، اشتغل في الفقه وأصوله والحديث وغيرها، وبرع في الميقات والحساب والفرائض وألمّ بفضائل، وطلب الحديث وقتاً، وأجاز له جماعة ولازم حضور مجالس الاملاء، وتنزل في صوفية المؤيدية وغيرها، توفي سنة 830 هـ /1427م[3].

وكذلك ترجمة عبد الله بن محمد بن عبد الله بن يوسف بن هشام الجمال أبو محمد بن المحب بن الجمال القاهري الحنبلي، ولد بعد 790 هـ /1388م بالقاهرة، حفظ القرآن والخرقي والطوخي

([1]) السخاوي، الضوء اللامع، ج1، ص38.

([2]) السخاوي، الضوء اللامع، ج3، ص249.

([3]) السخاوي، الضوء اللامع، ج4، ص281-282.

وألفية النحو وأخذ الفقه عن المحب بن نصر الله، وتنزل في صوفية الحنابلة بالمؤيدية أول ما فتحت بتعيين شيخهم العز البغدادي إلى أن مات 855 هـ /1451م[1].

أما بالنسبة للتصوف في مسجد الطواشي علم دار فقد ذكر السخاوي ترجمتين الأول هو داود بن سليمان بن حسن بن عبيد الله القاهري المالكي البرهاني، ولد سنة 792 هـ /1390م بالقرب من جزيرة بني نصر، ونشأ بها فحفظ القرآن والعمدة والرسالة والمختصر الفرعي أيضا وألفية ابن مالك ثم انتقل إلى القاهرة فلازم الاشتغال في الفقه والفرائض والعربية، ثم ولي مشيخة الصوفية بمسجد علم دار بدرب ابن سنقر بالقرب من باب البرقية، توفي سنة 863 هـ /1459م[2].

وثانياً زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الزين الأزهري الشافعي القاضي ولد سنة 826 هـ /1423م بسنيكة من الشرقية، ونشأ بها فحفظ القرآن، وعرضت عليه إمامة المدرسة الزينية الأستادار أول ما فتحت بشرط أن يكون ساكنها فأبى، واستمر به العلم بن الجيعان في مشيخة التصوف بمسجد الطواشي علم دار بدرب ابن سنقر بالقرب من باب البرقية عوضاً عن زينب ابنة شيخه أبي الجود[3]، ولعل في هذا خير دليل على أن مشيخة التصوف لم تكن قاصرة على مشايخ الصوفية من الرجال وإنما كانت متاحة المجال لأن تتولاها الشيخات من النساء أيضاً.

أما التصوف في الجامع الجديد الناصري بمصر فقد أورد السخاوي ترجمتين الأولى لرجل يدعى عبد الحميد لم يزد فيها على القول بأنه ولي مشيخة الصوفية بالجامع الجديد بمصر إلى أن

([1]) السخاوي، الضوء اللامع، ج5، ص57.

([2]) السخاوي، الضوء اللامع، ج3، ص211.

([3]) السخاوي، الضوء اللامع، ج3، ص234-235.

مات سنة 828 هـ /1424م [1]، أما الثاني فهو عبد القادر بن عبد الرحمن بن عبد الوارث بن محمد البكري المصري ثم الدمشقي المولود سنة824 هـ /، حفظ القرآن ومختصر ابن بشير في الحديث والفقه وابن الحاجب الفرعي، ثم ولي مشيخة الصوفية بالجامع الجديد الناصري بمصر ثم قضاء المالكية بدمشق وحمدت سيرته، واستمر هناك على ولايته مدة حتى مات سنة 874 هـ /[2].

المبحث الثالث: عمارة المؤسسات الصوفية

لا شك أن العصر المملوكي الممتد بين سنتي 648-923 هـ /1250-1517م كان من أزهى عصور التشييد والبناء في مصر، فقد بنى المماليك خلال هذه الفترة العديد من الأبنية المختلفة الأغراض مثل المساجد والمدارس والخانقاوات والأضرحة والتكايا والوكالات والأسبلة وغيرها، وهي أبنية تنوعت زخارفها في شتى جزئياتها من جهات ومنارات وقباب وغيرها، وتشابهت مخططاتها كثيراً حتى أن الفرق بين تخطيط المسجد والمدرسة والخانقاه لم يكن جوهرياً، إذ كانت كلها تشتمل على صحن تحيط به أربعة إيوانات في الجهات الأصلية الأربعة، معقودة متقابلة اختلفت كبراً وصغراً باختلاف العصر، وإن ظل إيوان القبلة فيها هو أكبر الإيوانات وأهمها، والواقع أن التخطيط في عمارة مساجد الإسلام الأولى الذي هو أصل كل التخطيطات في العمارة الإسلامية كان بسيطاً، روعي فيه أن يلبي فقط حاجة المسلمين لمكان يدون فيه الصلاة، ويتدارسون فيه أمور دينهم ودنياهم، ولم تكن تعنيهم في هذا التخطيط أن يكون ضخماً، ولا أمور التنميق والتزيين، وظل الأمر على ذلك في الغالب إلى أن جاء سلاطين السلاجقة في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي بعمارة المدارس لتدريس علوم الدين على المذهب السني، فبنيت العمائر التي جمعت بين

([1]) السخاوي، الضوء اللامع، ج4، ص40.

([2]) السخاوي، الضوء اللامع، ج4، ص270.

المدرسة والمسجد، وامتازت هذه العمائر عن المساجد الأولى بما أضيف إليها من تصميمات وملحقات لتكون سكناً للشيوخ والطلبة، ممن كانوا يدرّسون المذاهب الفقهية الأربعة في هذه المدارس كلها أو بعضها، وقد روعي في التصميم أن تشتمل على صحن مكشوف مغطى تحيط به أربعة إيوانات في شكل متعامد، وكانت الأركان الواقعة بين ضلعي هذا الشكل تشتمل على المدخل والسلم الذي كان يوصل إلى الأدوار العلوية وما فيها من مساكن للشيوخ والطلبة وملحقاتها، ونظراً لما أتى به هذا النظام في المدارس من سهولة رؤية الإمام وسماع الخطبة عنه في المساجد ذات الأكتاف الضخمة مثل ابن طولون ونحوه، فقد راعى المعمار المسلم بعد ذلك أن يبني المساجد على هذا النمط منذ القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وقد أدى ذلك إلى أن يوسّع في مساحة البناء ليكون مسجداً ومدرسة في آن واحد حتى أصبح من العسير تماماً على أي باحث أن يطلق على المبنى إحدى هاتين التسميتين دون الأخرى، وكثيراً ما كان يُضاف إلى هذه وتلك ضريحاً للمنشئ أو سبيلاً وكتّاباً، وقد استخدم هذا النظام في الخانقاوات أيضاً[1].

ويذكر المستشرق ارنست كونل المتخصص في العمارة والفنون الإسلامية أن مصر عرفت نظام المدارس ذات الإيوانات الأربعة عن طريق الشام في عهد صلاح الدين الأيوبي، كما عرفت الأضرحة ذات القباب عن طريق غرب تركستان[2] في عهد المماليك، ثم استفادت من هذين الطرازين في تصميم المسجد والمدرسة والخانقاه دون تغيير يذكر في عمارة المسجد التي كانت سائدة فيها قبل دخول هذين العنصرين، إلا عندما شاع تصميم المدرسة في عمارة المماليك حيث

([1]) وصفي، محمود، دراسات في الفنون والعمارة العربية الإسلامية، ص41-42.

([2]) تركستان هو اسم جامع لجميع بلاد الترك، وأول حدّهم من جهة المسلمين فاراب، ومدائنهم المشهورة ست عشرة مدينة. الحموي، معجم البلدان، ج2، ص23.

وسع المبنى تبعاً لذلك، حتى يمكن استعماله مسجداً ومدرسة في آن واحد، وهو أمر كان من نتيجته أن تم تصغير الإيوانين الجانبيين، حتى أصبحا مثل حنيتين بجانب الإيوانين الشرقي والغربي[1].

أما فيما يتعلق بالخانقاه فقد ورد في المراجع العربية أن تصميمها المعماري يمكن أن يُقسم إلى ثلاثة أنواع وهي: الجامع الخانقاه، والمدرسة الخانقاه، والقبة الخانقاه، وأن الجامع الخانقاه كان يحتوي على صحن مكشوف أو مغطى حسب الحالة، تحيط به أروقة من جميع الجهات أو بعضها على أن يكون رواق القبلة أكبرها، وتقع خلاوي الصوفية في هذا الجامع الخانقاه خلف القبلة، وقد تشغل طابقاً أو طابقين أو تصل إلى أربعة طوابق، وأحسن أمثلة هذا الطراز خانقاه سعيد السعداء، والبندقدارية والشيخونية والبرقونية بجبانة المماليك[2].

أما المدرسة الخانقاه فقد ورد أن طراز العمارة الإسلامية كان قد شهد منذ العصر الأيوبي طراز معماري جديد هو طراز المدرسة التي لاءم تخطيطها أداء وظيفتين، هما تدريس المذاهب الأربعة وتأدية شعيرة للصلاة، لذلك وجد المعمار نفسه مضطراً لترك الأروقة الأربعة لكي يلتقي كل شيخ بتلاميذه في واحد منها، وعلى هذا الأساس وافق نظام المدارس المعماري الخانقاوات تمام الموافقة، خصوصاً وأن هذه الخانقاوات كانت قد أصبحت منذ العصر المملوكي معاهد دراسية إلى جانب كونها دوراً للصوفية، وكانت خلوات الصوفية تكتنف الإيوانات الأربعة في طوابق عليا، مثلما كان الحال في الخانقاه الجاشنكيرية بيبرس، أو تكتنف إيواناً واحداً أو أكثر من إيوان مثلما كان

(1) كونل، ارنست، الفن والإسلامي، ترجمة أحمد موسى، دار صادر، بيروت 1966 ص105-107.
(2) ماهر، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، ج3، ص14.

الحال في الخانقاه البرقوقية بالجمالية، أو تكون منفصلة عنها تماماً بواسطة صحن كبير عبر صحن المدرسة مثلما كان الحال في الخانقاه الإينالية بقرافة المماليك[1].

أما القبة الخانقاه فقد ورد أن هذا الطراز من الخانقاوات كان قليل الوجود في العصر المملوكي، وكان من الممكن أن تسمى نماذجه بالزاوية لولا أنها كانت تشتمل على خلاوي للصوفية، ومن المعروف أن القباب كانت قد أقيمت أصلاً على المقابر والأضرحة في سامراء منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي خلال العصر العباسي ثم انتقلت إلى غيرها من بلاد العالم الإسلامي، أما في مصر فقد أقيمت القباب منذ العصر الفاطمي على أضرحة آل البيت والتي عرفت بالمشاهد، إلا أن القبة في العصرين الأيوبي والمملوكي كانت قد أصبحت ظاهرة معمارية مكملة للجامع أو المدرسة لما اعتاده منشئوا هذه الأبنية من إقامة أضرحة لهم فيها، ثم انفصلت بعض هذه القباب أو المدافن عن الجامع والمدرسة منذ القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي لكي تلحق بها مجموعة من الخلوات الصوفية حتى تكون خانقاه بذاتها مثلما كان الحال في خانقاه خوند طغاي الناصرية[2].

([1]) ماهر، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، ج3، ص15.

([2]) ماهر، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، ج3، ص15.

الخاتمة

شهد القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي ظهور نزعة التصوف بشكل واضح للعيان، وأخذ تيار التصوف مع القرن الثالث الهجري /التاسع الميلادي يتضخم شيئاً فشيئاً، ولكن ومع ذلك ظل طابع الزهد هو الغالب على التصوف، وكانت مدارس البصرة والكوفة والشام وخراسان والموصل وبلخ نموذجاً ومثالاً على التصوف في الفترة الممتدة على القرون الهجرية الثلاثة الأولى.

وفي مصر وتحديداً في العصر المملوكي شاع التصوف والاعتقاد بالشيوخ والأولياء والفقراء، لدرجة أن السلاطين والخواتين كانوا يحترمونهم ويقرّبونهم، مثل علاقة السلطان الظاهر بيبرس بالشيخ خضر، أحد متصوفة ذلك الزمان، وإن هذا الاحترام كان فاتحة خير عليهم، فكثرت الأوقاف السخية عليهم، وانتشرت الخوانق والربط والزوايا وهي مؤسسات صوفية، استقبلت المتصوفة وآوتهم بفرض أنهم كانوا منقطعين للزهد وللعبادة، ولكن هذه الخيرات دفعت الكثير من المتواكلين ومدّعي التصوف على الالتحاق بهذه المؤسسات طلباً للاستزادة من الطعام والشراب بغير ثمن، وهذا ما اعطى صورة سلبية عن التصوف بشكل عام، وهي صورة مغلوطة في جانب من جوانبها.

وعليه لا بد من القول المؤسسات الصوفية بأجمعها كانت عبارة عن دور للعلم والعبادة، فقامت بأدوار دينية وثقافية واجتماعية في حياة المجتمع الإسلامي منذ نشأتها في غالب الظن في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، لقد كانت هذه المؤسسات معاهد للمذاهب الفقهية والحديث والقراءات والتصوف وغير ذلك من العلوم الشرعية وما يتصل بها، كما أنها بنفس الوقت كانت مواقع إيواء لكل وافد إلى الديار من البلاد الإسلامية الأخرى ممن لم يكن لهم مأوى أو ملجأ، وكنت أيضاً مراكز إشعاع ثقافي بما احتوته بعض مكتباتها من الكتب المصنفة في شتى صنوف العلوم والمعارف، وبسبب شيوع هذه المؤسسات وانتشارها في المجتمع فقد أخذت شكلاً وطابعاً معمارياً مميزاً.

قائمة المصادر

ابن الأثير، محمد بن عبد الكريم الشيباني(ت 630هـ/1232م)، **الكامل في التاريخ**، تحقيق عمر تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت 1997.

الأدفوي، جعفر بن ثعلب (ت748 هـ /1347م)، **الموفي بمعرفة التصوف والصوفي**، تحقيق محمد صالحية، ط1، مكتبة دار العروبة، الكويت 1988.

الأدنروي، أحمد محمد،(من وفيات القرن 11 هـ /17م)، **طبقات المفسرين**، ط1، تحقيق سليمان الخزي، مكتبة العلوم والحكم، السعودية 1997.

الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله (ت430 هـ /1038م) **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، ط4، دار الكتاب العربي، بيروت 1984.

الأصبهاني، إسماعيل بن محمد بن الفضل (ت535 هـ /1141م) **سير السلف الصالحين**، تحقيق كرم بن حلمي بن فرحات بن أحمد، دار الراية، الرياض د.ت.

الالوسي، شهاب الدين أبو الثناء محمود (ت1270 هـ /1853م)، ال**فيض الوارد على روض مرثية مولانا خالد**، المطبعة الكستلية، د. م. 1861م.

ابن إياس، محمد بن أحمد (ت930هـ/1425م) **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، تحقيق محمد مصطفى، فرانز شتاينر فيسبادن، ألمانيا 1974.

بيبرس، الدوادار (ت725هـ/1324م) **زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة**، تحقيق زبيدة محمد عطا، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، القاهرة 2001 .

بدران، عبد القادر (ت1346 هـ /1927م)، **منادمة الأطلال ومسامرة الخيال**، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت 1985.

البصروي، علاء الدين علي بن يوسف(ت 905 هـ /1500م) **تاريخ البصروي، صفحات مجهولة من تاريخ دمشق في عصر المماليك**، تحقيق أكرم العلبي، ط1، دار المأمون للتراث 1988.

البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد (ت440 هـ /1047م) ت**حقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذوله**، ط2، عالم الكتب، بيروت 1983.

ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت 874هـ/1470م) **المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1988 .

-----، **النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة**، ط2، دار الكتب والوثائق القومية، مصر 2005 .

ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم (ت728 هـ /1327م)، **مجموع الفتاوى**، ط3، تحقيق أنور الباز وعامر الجزار، دار الوفاء، دمشق 2005.

الجامي، الملا نور الدين عبد الرحمن بن أحمد (ت898 هـ /1492م)، **نفحات الأنس من حضرات القدس**، تحقيق محمد الجادر، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 2003.

ابن جبير، محمد بن أحمد بن جبير الكناني (ت614 هـ /1217م) **رحلة ابن جبير**، دار ومكتبة الهلال، بيروت 2000.

ابن الجزري، شمس الدين أبو خير محمد بن محمد (ت833 هـ /1429م) **غاية النهاية في طبقات القراء**، ط2، عني بنشره برجستراس، دار الكتب العلمية ، بيروت 1995.

ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت597 هـ /1200م)، **تلبيس إبليس**، ط1، دار الفكر، بيروت 2001.

ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت 597 هـ /1200م)، ال**منتظم في تاريخ الملوك والأمم**، تحقيق محمد عبد القادر ومصطفى عبد القادر، ط1، دار الكتب بيروت، لبنان 1992 .

ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي (ت 852 هـ /1448م)، **تهذيب التهذيب**، ط1، مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند 1908.

------، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، **تحقيق محمد عبد المعين خان**، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، الهند 1972.

الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت626 هـ /1229م)، **معجم البلدان**، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1979.

الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبدالله (ت900 هـ /1495م) **الروض المعطار في خبر الأقطار**، ط2، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت 1980.

ابن الحنبلي، رضي الدين محمد بن إبراهيم (ت971 هـ /1564م)، **درر الحبب في أعيان حلب**، تحقيق محمود الفاخوري، دمشق 1974.

ابن الخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت (ت463 هـ /1072م) **تاريخ بغداد وذيوله**، ط1، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت 1997.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت808 هـ /1405م)، **مقدمة ابن خلدون**، مكتبة الأسرة، وزارة الثقافة 2009.

ابن خلكان، أحمد بن محمد بن إبراهيم (ت681 هـ /1282م) **وفيات الأعيان**،ج10، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1994.

الدواداري، أبو بكر عبدالله بن أيبك (ت736هـ/1432م) **الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر**، ج9، تحقيق هانس روبرت رويمر، 1960.

الدواداري، أبو بكر عبدالله بن أيبك (ت736هـ/1432م) **الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية**، تحقيق، صلاح الدين المنجد وسعيد عاشور واولرخ هارمان وهانس روبرت رويمر، القاهرة 1972.

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت748 هـ /1347م) **سير أعلام النبلاء**، ط1، ج18، تحقيق شعيب الارناؤوط ، مؤسسة الرسالة، بيروت 1984.

-----، **العبر في خبر من غبر**، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 1985.

-----، **تذكرة الحفاظ**، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 1998.

-----، **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**، تحقيق علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت 1963.

السبكي، تاج الدين عبد الوهاب(ت771 هـ /1369م) **معيد النعم ومبيد النقم**، ط1، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت 1986.

-----، **طبقات الشافعية الكبرى**، ط2، تحقيق محمود الطناجي وعبد الفتاح الحلـــو، دار هجـــر، الرياض 1992.

السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت902هـــ/1496م) **الذيل الضـــوء اللامـــع لأهـــل القرن التاسع**، ط1، تحقيق عبد اللطيف حسن، دار الكتب العلمية، بيروت 2003.

السخاوي، محمد بن عبد الرحمن (ت902هـــ/1496م) و**جيز الكلام في الذيل على دول الإســـلام**، ط1، تحقيق بشار عواد وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1995.

السراج، عبد الله بن علي (ت378 هـــ /988م) **اللمع**، دار الكتب الحديثة، مصر 1960.

ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع (ت230 هـــ /845م) **الطبقات الكبرى**، ط1،ج7، تحقيق إحســـان عباس، دار صادر، بيروت 1968.

السلمي، محمد بن الحسين بن محمد (ت412 هـــ /1021م) **طبقات الصوفية**، ط1، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت 1998.

السهروردي، عمر بن محمد (ت632 هـــ /1234م) **عوارف المعارف**، ط1، دار الكتاب العربـــي، بيروت 1966 .

السهروردي، عمر بن محمد (ت632 هـــ /1234م) **آداب المريدين**، تحقيق حسين حميد مجيد، دار اليازوري، عمان 2010.

ابن سيده، علي بن إسماعيل (458 هـــ /1066م) **المحكم والمحيط الأعظـــم**، ط1، تحقيـــق عبـــد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت 2000.

السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر (ت911 هـ /1505م) **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، ط1، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر 1967.

ابن شداد، محمد بن علي بن إبراهيم (ت684هـ/1285م)، **تاريخ الملك الظاهر**، باعتناء أحمد حطيط، فرانز شتاينر بفيسبادن، مركز الطباعة الحديثة، بيروت 1983.

الشريف عبد الحي، عبد الحي بن فخر الدين الحسني (1341 هـ /1923م)، **نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر**، ط1، دار ابن حزم، بيروت 1999.

الشعراني، عبد الوهاب بن أحمد (ت973 هـ /1565م) **الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية**، تحقيق طه سرور والسيد محمد الشافعي، مكتبة المعارف، بيروت 1985.

-----، **الطبقات الكبرى (لوافح الأنوار في طبقات الأخيار)**، مكتبة محمد المليجي الكتبي وأخيه، مصر 1897.

-----، **لطائف المنن**، القاهرة 1988.

الشرنوبي، أحمد بن عثمان (ت994 هـ /1585م) **تائية السلوك إلى ملك الملوك**، شرحها الشيخ عبد المجيد الشرنوبي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 2002.

الصفدي، **صلاح الدين خليل بن أيبك**(ت764 هـ /1362م)، تحقيق احمد الارناؤوط، ، دار إحياء التراث، بيروت، 2000 .

-----، **أعيان العصر وأعوان النصر**، ط1، تحقيق علي ابو زيد وآخرون، دار الفكر، بيروت 1998.

الصيرفي، علي بن داوود (ت900هـ/1494م)، **نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان**، تحقيق حسن حبشي، دار الكتب، مصر 1970.

الظاهري، غرس الدين خليل بن شاهين (ت873هـ/1468م) **زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك**، وضع حواشيه خليل المنصور، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 1997.

ابن عبد الحق، عبد المؤمن بن شمائل البغدادي (ت739 هـ /1338م) مراصد **الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**، ط1، دار الجيل، بيروت 1992.

ابن عربشاه، أحمد بن محمد (ت854 هـ /1450م) **عجائب المقدور في أخبار تيمور**، ط1، كلكتا، 1817.

العطار، فريد الدين (ت627 هـ /1230م) **تذكرة الأولياء**، ط1، تحقيق عاصم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت 2010 .

العليمي، أبو اليمن عبد الرحمن بن محمد (ت928هـ/1521م) ال**أنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، دار المحتسب، عمان 1973.

ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد(ت 1089 هـ /1678م) شذ**رات الذهب في أخبار من ذهب**، ط2، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق 1986.

العيني، بدر الدين محمود (ت855هـ/1451م)، **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان**، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة 1987.

الغزي، نجم الدين محمد بن محمد (ت1061هـ/1651م)، الك**واكب السائرة بأعيان المائة العاشرة**، ط1، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت 1997.

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت505 هـ /1111م) **إحياء علوم الدين**، دار المعرفة، بيروت 1970.

الفارابي، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري (ت393 هـ /1003م) **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، ط4، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت 1987.

ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت735 هـ /1334م) **تاريخ ابن الفرات**، تحقيق قسطنطين زريق، جامعة بغداد، بغداد 1970.

القاشاني، الشيخ عبد الرزاق (ت730 هـ /1329م)، **اصطلاحات الصوفية**، تصحيح عاصم الكيلاني، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 2005.

ابن قاضي شهبه، تقي الدين بن احمد (ت851 هـ /1447م) **تاريخ ابن قاضي شهبه**، ج3، تحقيق عنان درويش، دمشق 1977 .

القفطي، علي بن يوسف بن إبراهيم الشيباني (ت646 هـ /1248م) أخبار **العلماء بأخبار الحكماء**، ط1، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت 2005.

القشيري، عبد الكريم بن قاسم (ت465 هـ /1072م)، **الرسالة القشيرية**، تحقيق زكريا الأنصاري، دار أسامة، بيروت 1987.

الكتبي، محمد بن شاكر (764 هـ /1362م) **فوات الوفيات**، ط1، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1973.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر(ت774 هـ /1372م) **البداية والنهاية**، ط1، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت .

الكلاباذي، محمد بن إبراهيم (ت380 هـ /990م) **التعرف لمذهب أهل التصوف**، دار الكتب العلمية، بيروت19 .

المطرزي، ناصر بن عبد السيد (ت610 هـ /1213م) **المغرب في تشكيل المعرب**، تحقيق محمود فاخوري وعبد الحميد مختار، حلب، سوريا 1979 .

المقدسي، محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت380 هـ /990م) **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ط3، مكتبة مدبولي، القاهرة 1991.

المقريزي، أحمد بن علي (845هـ/1441م) **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 1997.

------، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، ط1، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت 1997.

الملطي، محمد بن أحمد بن عبد الرحمن (ت377 هـ /987م) **التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع**، تحقيق محمد زاهد الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث، مصر1949.

النويري، شهاب الدين أحمد (ت 733 هـ /1232م)، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق مفيد قمحية وآخرون، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 2004.

الهجويري، أبو الحسن علي بن عثمان (ت465 هـ /1072م) **كشف المحجوب**، تقديم إسعاد قنديل، دار النهضة العربية، بيروت 1980.

اليافعي، عبد الله بن أسعد (ت768هـ /1367م) **مرآة الجنان وعبرة اليقظان**، ط1، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت 1997.

اليونيني، أبو الفتح موسى بن محمد (ت726هـ/1326م) **ذيل مرآة الزمان**، ط2، بعناية: وزارة التحقيقات الحكمية والأمور الثقافية للحكومة الهندية، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة 1992.

قائمة المراجع

أحمد، عبد الرزاق، **البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك**، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1979.

تركي، إبراهيم محمد، **التصوف الإسلامي**، أصوله وتطوره دار الكتب القانونية، القاهرة 2009.

حمادة، محمد ماهر ، **دراسة وثقية للتاريخ الإسلامي ومصادره**، ط1، بيروت ، مؤسسة الرسالة 1998.

حمزة، عبد اللطيف، **الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي**، ط8، دار الفكر العربي، القاهرة 1968.

حنفي، عبد المنعم، **معجم مصطلحات الصوفية**، ط1، دار المسيرة، بيروت 1980 .

دولت، عبد الله، **معاهد تزكية النفوس في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي**.

الرومي، صهيب، **التصوف الإسلامي**، ط1، بيسان للنشر، بيروت 2007.

الزركلي، خير الدين بن محمود، **الأعلام**، ط15، دار العلم للملايين، 2002.

زكي، محمد حسن، **فنون الإسلام**، دار الرائد العربي، بيروت 1981.

سركيس، يوسف البان، **معجم المطبوعات العربية والمعربة**، القاهرة 1928.

سلام، محمد زغلول، **الأدب في العصر المملوكي**، دار المعارف الإسكندرية 1994.

عفيفي، أبو العلا، **التصوف الثورة الروحية في الإسلام**، دار الشعب، بيروت 1969.

العلبي، أكرم حسن، **خطط دمشق**، ط1، دار الطباع 1989.

عميرة، عبد الرحمن، **التصوف الإسلامي منهجاً وسلوكاً**، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة. د. ت.

لمعي، صالح مصطفى، **التراث المعماري الإسلامي في مصر**، جامعة بيـــروت العربيـــة، بيـــروت 1975.

كونل، ارنست، **الفن الإسلامي**، ترجمة أحمد موسى، دار صادر، بيروت 1966 .

مصطفى، إبراهيم، وآخرون، **المعجم الوسيط**، دار الدعوة، اسطنبول 1989.

ماهر، سعاد، **مساجد مصر وأولياؤها الصالحون**، المجلس الأعلى للشـــؤون الإســـلامية، القـــاهرة 1971.

النباهين، علي سالم، **نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك في مصـــر**، ط1، دار الفكـــر العربي، بيروت 1981.

نيكلسون، رينولد، **في التصوف الإسلامي وتاريخه**، نقله إلى العربية أبو العلا عفيفي ، لجنة التأليف والنشر القاهرة 1956.

الولي، الشيخ طه، **المدينة في الإسلام**، مجلة الاجتهاد، دار الاجتهاد، بيروت 1990.

G. annmuller and others .Sufi. Shorter Encyclopedia of Islam .Leiden ،E،J،Brill 1974 ..

Abstract

This study has come to be anew reference about the " Sufi " institutions at the first Mamluki period (648-784 A.H/1250-1382 A.D)، and their role in the public life، it's known that " Sufia " flourished greatly at that time to the extent that no historian can ignore the " Sufia " then because " Sufists " and their institutions became a main part of that society.

This study covers the first " Mamluki " period (648-784 A.H/1250-1382 A.D)، which was ruled by " Turkish Mamluki "، In addition it analyses the " Sufi' institutions which were known with different names such as، Rubut، Zawaya and KHawanek.

They were changed into shelter to homeless people and so some followers changed the " Sufia " from worship، isolation from people and self-torturing into anew shape of dependence and earning from " Karamat" and foreseeing، that was the real reason of the negative

vision about the " Sufia " in society has been kept in minds so far.

Key words: Sufia ، Rubut، Zawaya ، KHawanek.